بيان الأسرار

في

سر الأقدار

تأليف

العالم الشيخ حبيب الله القحيّ الداغستانيّ

رحمه الله تعالى

شرف بخدمته

محمد بن إسرافيل الهوريّ

بيان الأسرار في سر الأقدار

تأليف

العالم الشيخ حبيب الله القحيّ الداغستانيّ

رحمه الله تعالى

شرف بخدمته

محمد بن إسرافيل الهوريّ

Dar Al-Hikma

بسم الله الرحمن الرحيم

الإدارة الدينية لمسلمي داغستان

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٥م



داغستان - محاج قلعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

◆الزمر: ٦٢◆

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾

◆المدثر: ٣٨◆

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

◆التكوير: ٢٩◆

المقدمة

االحمد لله الذي قدّر كل شيء، وجعل لكل شيء قدرا، فإنّه سبحانه وتعالى خلق كل شيء بقدر، وأَمْرُه كان قدرا مقدورا وقضاء مقضيا، تعالى الله عن الحدوث في ملكه ما لا يريد، ولا يريد ظلما للعبيد

ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وشفيعنا محمد ﷺ، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، أجمعين.

وبعد:

فإنّ إشكال القضاء والقدر، هو إشكال الناس، في كل عصر، وفي كل بيئة، وينقسم الناس بسببها فرقا، وطوائف، فتنظر كل فرقة إلى جانب من جوانب الإشكال، والسبب في ذلك رغبات خفية أو ظاهرة، وتشابك عناصر هذا الإشكال هو العامل الرئيسي في كونه تحيرا من تحيرات عقل البشر.

فإذا كان القضاء والقدر الإلهيان لا يكون في الحياة إلا حكمهما، والإنسان وأفعاله جزء من أجزاء الكون، ومسألة القضاء والقدر مع مسألة كون الإنسان مكلفا مختارا مسؤولا عن فعله أو تركه في الدارين المجموعتان في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ مما تقاصرت عنه عقول العقلاء وضاقت به علوم العلماء، كافيك به أن القَدَرَ سِرٌّ من أسرار الله، ولذلك افترق العقلاء والعلماء في أفعال الناس إلى مذاهب، وجرت بعضهم إلى إحداث نظرية ضعيفة لو تُرِكَت لتنزل القدر عن مكانه السري إلى منزلة مسألة بسيطة مع ما حولها من إنكار القدر أيضا، وإنكار ما شهد به العقل.

وما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة الذي هو أول من رفع راية المجهدة واعتزل عن

المعتزلة فأحيى عقيدة صدر الإسلام، وقلب علم الكلام إلى هيئة غير هيئته التي خلعها عليه المعتزلة،

والمرجئة، هو خير المذاهب في مسألة القضاء والقدر.

فإنّ أنور الاعتقاد هي أساس الإسلام بلا شك؛ إذ لا تقوم جُلة إحكامه وتشريعاته وآدابه إلا عليها.

فإنّ العلاقة بين العبد وربه جلّ جلاله هو أهم ما تدور عليه أمور الاعتقاد هذه، فمِنْ دون التَّبصر بها لا يستقيم بها أي معنى لإيمان الإنسان بالله، ولا يستبين أيٌّ من الواجبات التي ينبغي أن يقوم بها الإنسان تجاه مولاه، وخالقه، ولا يتجلّى معنى سليم للتكليف، بحيث يبعث على قناعة العقل، وطمأنينة النفس.

تقريظ العالم أبو عبد الله عَلِي أَصْحاب

وأنـا المُفلِس المُقصّـر في العبادات المُنْهمِـك المُنْغَمس في بَحْـر الغَفَلات أبـو عبـد الله عَلِـي أَصْحـاب -عفـى عـن زَلّاتـه الغفّـارُ الوهّـابُ- الـذي عقيدتُـه عقيـدة المؤلِّـف حبيـبِ الله دِبـر، دَأْبُـه الوقـوف عنـد ظاهـر مـا حـدّه القـادرُ المُقتَـدِر، وَصَلَ إليّ مُؤَلَّـف ذلك المحبوب المُحلِّل الأغوارِ المسمّى بـ«بيان الأسرار في سِرّ الأقدار» في زمـن لا فَـرَاغَ لـي فيـه للنظر إليه بالتفكّر فيما فيه، فنظـرتُ إليه نَظَـرًا إجماليًّـا، وعـن إدراك كلّ مـا فيـه قاصـرًا خاليًـا، فوجدتُـه سِفْـرا فائقًـا، وباســمه مطابِقًـا موافِقًـا، وفي ضِمنـه فوائـدُ شـامخةٌ للحفـظ في خِزَانَـة الخَيَال لائقةً، فللـه دَرّ المؤلـف المحقّق ذي العلـوم الفائقات، ودَرّ مـا جُمِعـتْ هنـا مـن أقـوال المشايخ السـادات، فالحمـد لخالـق الكائنـات، والشـكر لموجـد الممكنـات علـى إيجـاد مثلـه في قُرَانَـا القَحِيّـات.

وكان هـذا الحقيـر إذا رَأى أو سَـمِع مَـنْ يَسأل عـن مثـل مـا ذكـر، يظـنُّ أنّ في إيمانـه ضَعْفًـا، وفي عقيدتـه قَلَقًـا، واضطرابًـا، وإلّا لمّـا سـأل عمّـا لـم يكلَّـف بـه، بـل وَرَدَ النهيُ عنه في كلامـه المجيـد، فـإذا سـمع أنّ العالـم الفائـق العابـد الفاضـل إبراهيـم دِبـر الهُـؤُرِيّ أَوْرد هـذه الأسـئلة كان قـد تعجّـب منـه تعجّبًـا كثيـرًا، ولا يعلـم الحكمـة فيـه، فـالآن ذهـب عنـه التعجُّـب، وتيقّـن لـه أنّ الحكمـة في ذلـك إبـرازُ هـذه الكُرَّاسـة مـن العـدم إلـى الخـارج، وإبداءهـا مـن السـابق إلـى اللاحـق، والسـلام علـى مـن اتّبـع الهـدى، ٢ محرم ١٣٥٣هـ من خطه.

تقريظ العالم الشيخ محمد بن إبرهيم خَلِيل الطِدِيّ

إذا نظرت إلى تصنيف قد حُرِّرت * قرّظتها بمديح الفيح ذي النجب

عجبت في سلكه الألفاظ كالدرر * مثل نجوم الهدى لهدي ذي الأَرِب

بصرف شطر من الأزمان جُمعتْ * أجوبةٌ نُقلتْ من سالف الكتب

حتى استفدنا علوما من كرّاسته * وحق كتبتها في صدر ذي النُكَب

وقد أنارتْ ضياء النور في الأُفُق * ولاج جهل الورى في ظلمة السحب

لا زالت آثاره غيثا لأمثالنا * تسقي البلادَ وتحْمِي الأرض بالخَصْب

تقريظ العالم كَلِج الطِدِيّ

ولمّا نظرت إلى ما كتبه هذا الأخ المحقّق العالم المدقّق القاضي حبيب الله القحي من أوله إلى آخره جوابا للقاضي إبراهيم الهُوْرِيِّ في إشكاله على الآيات اللاتي تصارع عليها الحزبان وتنازع فيها الفرقتان من الأشاعرة والمعتزلة وجدته كلاما صافيا منقولا من كلام السادات الكرام - أذاقَنا الله من مشاربهم ولو رَشْفًا من دِيَمِهم - وحقيقا أن يكتب بالتبر الأحمر على خدود علماء الظاهر بحيث يزيل إشكاله وينقطع به شبهته ولا عجب في ذلك لكون هذا المحقق ممن أفاض عليه شيئا من بركة الأنام ومص منها كل يوم على الدوام فلله دره وإليه سعيه من أضعف القرّاء وأدنى الفقراء صاحب الكسلان رفيق الإخوان كلج الطِديّ، من خطه.

ما كتب المؤلف إلى العالم إبراهِيم دِبرْ الهُؤرِيّ

حَضْرَة عَزيزي الأَحَبُّ إبراهِيم دِبرْ الهُؤرِي، السلام عليكم، والرحمة من الله البَارِي

وبعدُ فأرسلتُ إليكم ما كنت سَطَّرْتُه جوابًا لسؤالكم، وكنت إلى الآن منذ زمان لا أَقدر على إخراجه في ميدانٍ ظنًّا منّي أنّه لا يقبَلُه الخُدماء فضلا عن اعتبار العلماء؛ لأنّي لستُ من أهل العلم ودِرايتِه، ولا مِن أهلِ العِرفان، وصِناعتِه، بَيْدَ أنّه خفت من كونه من البخل، والكِتمان، ومن الصَدِّ عن باب الإحسان، فإن رأيتَه فذا هو المقصود المأمول، وإلّا فتلحَقه الحقّ المقبول، ومن المثل: أنّه لا يصبّ من الإناء غيرُ ما فيه، ومَنْ أقام العُذر لنفسه سقط عنه اللَّوْم، كما قيل: إذا اعتذرَ الجاني مَحَى العذرُ ذَنْبَه، وكل امرِئٍ لا يَقبَل العذر فهو مُذنِب انتهى، والسلام، من الفقير مُحِبّكم حبيب الله دبر القحي في ١٨ من شوال ١٣٥١ هـ من خطه.

ما كتب جوابا للمؤلف العالم إبراهِيم دِبرْ الهُؤُرِيّ

وَصَلَ إليّ ما جمعه العالم العليم الربانيّ، والخليل الفاضل الصَمَداني حبيب الله دبر رحمه الربّ المقتدِر جوابًا لمَسْئَلتي في سرّ القدر الذي أخرج اللعينُ سبعين ألف عابد من ديوان العُبُودية إلى ديوان الزَنْدقة بتلك المسألة كما قال به لإمامنا الشافعي، فقبلت بالعين والرأس وترحبته بالقلب، والنفس، وبه زال عنّا، وعن غيرِنا المُعْضِلات، وأراحنا من الرّيوبات، والمشكِلات فلله دَرّه حيث بالغ، وجهد في جمْع الأقوال الكنزيّة المَخْفِيّة من كتب العلماء الظاهرية، والباطنيّة بالعبارات البريقة الفصيحة، والكلماتِ النفيسة البهيّة، كمن سقى الراح من كأس اللَّسَن، وفتح عليه الحكمة من خالق الإنسان بحيث لا يكلّ، ولا يمل نظرُها، ولو ساعة فساعة فكيف يَرْتَوِي الظمآن من الماء الزُلال بشَرْبَة، وكيف يكتفي بالذوق مِنْ حُلو مَنْ أفطر عن صيام، وقلت:

كتاب كريم فيه حكمة لناظرٍ * فصيح صَبِيح مُعْجِزٌ متظافرٌ

يَفيح في طيّها من المسك عاطر * كما فاحتْ وزَانَتْ بروض أزاهرُ

تَلألأ مضمون ألفاظه لكلّ ناظر * كدُرٍّ عديم المثل في الجواهرِ

حكاه وحاكه الحبيبُ الظاهرُ * بأقوال هامّ فيها التحارِير

فلاحت لي بها سر وسرور * كما لاحت بأُفُق زواهر

وهَيَّج مني الوَجد والحُب الوافر * بحيث لساني عن بيانه قاصرُ

وناحت حمام الفرح في كل دور * كما صاحت في الزروع عصافرُ

والذلة مُثنٍ في كل عصر * وبالخير داع كل وقت وذاكر

حماه وحمانا من كل كيْدٍ وضُرٍّ * كما حمى المصطفى في الغار من ضرر

وصلى الإله على سيد البشر * ما دام دور السماء والشمس والقمر

فهذا، والسلام إليكم بالدعاء أُوصيكم، وأنا الفقير العليل النقير الكثيب إبراهيم دبر الهُؤُرِي حرّر في ٤ من شوال ١٣٥٢ هـ.

كتاب «بيان الأسرار في سرِّ الأقدار» لحبيب الله القَحِيّ الداغستاني

هـذا الكتـاب الـذي نحـن بصـدده مـن أهـمّ كتـب الـتراث الداغسـتاني الإسـلامي؛ إذ إنـه يبـدي لنـا أنبـاء كثيـرة عـن مفاهيـم دينيـة، ومسـتوى علمـي لتلك الأمة، ويُؤكِّـد لنـا أنّ منهجهـم كان منهـج أهـل السنة والجماعـة الأشـعرية في مسـائل أصـول الديـن الأساسية كالإيمـان بـأن كل مـا شـاء الله كان، ومـا لـم يشـأ لـم يكـن.

إنّ كتـاب «بيـان الأسـرار في سرِّ الأقـدار» مـن مؤلفـات حبيـب الله بـن الحـاج عيسـى الداغسـتاني النقشـبندي الشـاذلي المتكلـم أحـد الشـخصيات الداغسـتانية البـارزة في زمانـه، أَلَّفَـه حبيـب الله خِـلال فـترة صعبـة، وضيـق الوقـت بعـد الطلـب مـن العالـم إبراهيـم دِبِرْ الهُـؤُرِيّ(١).

ميّـز هـذا الكتـاب بالجمـع فيـه بيـن أقـوال علمـاء الظاهـر، والباطـن، وهـذا الكتـاب الـذي بيـن أيدينـا مـن أواخـر مـا صنفـه حبيـب الله، كمـا يـدلّ عليـه قـول المؤلـف في آخـر الكتـاب: «وقـد أخرجتـه مـن السّـواد إلـى البيـاض في أواخـر شـهر صفـر مـن سـنة ألـف وثلاثمائـة وإحـدى وخمسـين».

وقـد ذكـر حبيـب الله القحِيّ في بداية كتابـه بـأن سـبب التأليـف هـو الجـواب علـى سـؤال إبراهيـم دِبِرْ مع أنـه ليـس مـن أهلـه.

فـإن كتابـه هـذا لا يخلـو مـن بعـض الفوائـد، وتحريـرات المسـائل التـي اسـتخرجها ممّـن سـبقه.

---

(١) إبراهيـم دبـر بـن دِمِـش بـن محمـد الهـؤري الأواري، فَـلاّح، (١٨٤٩ - ١٩٣٨م) وُلِـد في قريـة هُـؤُرْ، وحُبِـس في يوليـو ٢٩، لـه مصنفـات كثيـرة، وكان مـن أسـاتيذه عُمَـر ضيـاء الديـن الداغسـتاني.

وكثيرا مّا اعتمد حبيب الله في تصنيفه على كتب كبار العلماء مثل «اليواقيت والجواهير» و«لطائف المنن» للشعراني، و«المكتوبات» للإمام الرباني، و«إحياء علوم الدين» للغزالي، و«الملل والنحل» للشهرستاني، وسائر المصنفات المعتمدة.

بدأ حبيب الله كتابه بذكر سؤال إبراهيم دِبِرْ الذي يتكوّن من عدة الآيات والأحاديث ثم أتى بكلامه الذي هو السؤال فقال: «فمع هذه الآيات، والأحاديث فما فائدة التكليف؟ فإذا لم يشأ الله تعالى هداية العبد، وأراد شقاوته، فكيف العقاب له بما شاء الله، وأراد؛ فإن قلتم: (بمباشرة العبد، وكسبه بالفعل) فكيف المباشرة[1]، والكسب إلا بإقدار الله تعالى للعبد، وإرادته مع أنه ليس له قدرة، ولو لتحريك إِصبعه بنفسه إلّا بالله تعالى، وقلبُه عنده كَرِيشٍ في فَلاةٍ يقلّبها الرِّياح ظهرا لبطن، وبطنا لظهر؟ إلخ.» ثم أجاب بقوله: «اعلم أيّها الحَبْر، واسمع يا هذا البحر أنّ هذه المسألة مما تحيّرتْ فيها أفكار الفقهاء، والعُرَفاء، وتقاعدتْ عليها أنظارُ الخواصّ، والخُبَراء، ولم تبلغ إليها أفهام الأقوام، والفقهاء، ولم يزلْ فيها إشكال العوامِّ، والعلماء حتى قال حجة الإسلام الغزالي الذي هو من الأصفياء، والكُبَراء: (إنها لم يزل إشكالها أبدا الآبدين، ودهر الداهرين، ولو للرّاشدين من الخلفاء إلّا من طريق الكشف لأهل الله العلماء) إلخ.»

ثم يخبر عن الإرادة، والإختيار في العبد، ويوضِّح سببَ عقاب العصاة مع عدم الإرادة فيهم كما يزعُمُ بذلك بعضُ الفرق.

---

(١) لعل: «وليس».

فإني قد وجدت أنّ المؤلِّف اعتمد كثيرًا على كتب أهل التصوف الحقيقيّ، وقد نقل النصوصَ غالبًا باللفظ من المصادر المشهورة كما هو، مثل «اليواقيت والجواهر» و«إحياء علوم الدين» و«المكتوبات» و«لطائف المنن» مع التصريح بالنقل، ولا يصرِّح أحيانًا.

ترجمة الشيخ حبيب الله القحي الداغستانيّ

اسمه ونسبه

ويقول أهل قَحِ[1] اسمه بلهجتهم لُطْفًا «حَيْبُ الله حاج». واسمه الكامل «حبيب الله».

وأما تاريخ ولادته فغير معروف إلا أن أقاربه قالوا بأنه كان أكبر سنًا من حسن أفندي -١٨٥٢- بثمان أو عشر سنوات.

العالم العارف المأذون حبيب الله دبر بن الحاج عيسى، أبو حبيب الله باسم الحاج عيسى غير معروف عند أهل القرية، وبسبب هذا بقي عندي السؤال من هو، فقد بحثت عنه مدة طويلة[2].

نسبته

القحي: بفتح القاف وكسر الحاء.

نسبة إلى قح وهي قرية مشهورة بالأساتذة الثلاثة - حسن حلمي ومحمد عارف وحبيب الله قدس الله أسرارهم - في جبال داغستان.

أما مذهبه في الفقه، اعتمادا على أن مذهب أهل داغستان شافعيٌّ فكان شافعي المذهب.

وأما مذهبه في العقيدة فقد اتبع الإمام أبا الحسن الأشعريّ كما يدل على ذلك كتاب «بيان الأسرار في سرّ الأقدار».

---

(١) تقع هذه القرية في منطقة «شمويل».

(٢) بعد طول البحث وسؤال كثير من الناس فهمنا أنه حبيب الله بن مرتضى علي، ولكن كتبتُ حبيب الله بن الحاج عيسى في الصفحة الأولى؛ لأني وجدت في المخطوطة هكذا، والله أعلم.

ولادته ووفاته

واعتمادا على أنه كان أكبر سنا من حسن أفندي كُتِبَ على شاهد القبر الذي تم تركيبه في مبنى زيارة الأساتذة الثلاثة من القحي، تاريخ ولادته ألف وثمانمائة وأربع وأربعون -١٨٤٤م.

ومكتوب على شاهد القبر أن حبيب الله تُوفّي ليلةَ يوم الثامن من جماد الأول عام ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين -١٣٤٣هـ- ألف وتسعمائة وأربع وعشرين -١٩٢٤م. ويفهم من ذلك أنّ عمرَه كان ثمانين سنة، ولكنّ بناته قلن: أنّ عمره في هذه السنة كان فوق ثمانين.

إجازة حسن أفندي لحبيب الله القحيّ في الطريقة الشاذلية

بسم الله الرحمن الرحيم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

الحمد لله الذي وصل من استند على جَنَابه، ولازَمَ الوقوف على أبوابه، والصلاة والسلام على رسوله محمد، وآله، وصحبه آمين.

أما بعدُ فلمّا كانت الإجازة في طريق الله تعالى من أجلّ الأسباب للترّقي إلى كمال المقامات لمن يريد زيادة النور، وكانت نتيجة الإجازة لا تحصل إلا إنْ دخل في جملة من سرت أسرارهم إلى حضرة الحضرات، وخاض في عالم الملكوت، واطّلع على لمحٍ من لوامح اللّاهوت، واشتغل بذكر الله الملك المتعال، وصار من أرباب الأحوال، وكان من إخواني، وأصحابي مَنْ سلك هذا الطريق القويم، ونهجَ منهجَه الواضح المستقيم، وشمّر في طلب حق اليقين، وأجاز له شيخنا ذو الجناحين الحاج عبد الرحمن العسوي[1] - قدس سره - في تلقين ذكر القلب على ما هو مذكور في كتب الطريقة النقشبندية ألا، وهو العالم الموفَّق الحسيب النسيب الحاج حبيب الله ولد مُرْتَضَى علي القحيّ الهِدَلِيّ أدام الله له الأمداد، وأسبغَ عليه النفعَ العامَ لأهل السَّداد، حمل حسنُ نيّته، وصفاءُ طويته على أن يستنير هُدَاهُ بما

---

(١) الحاج عبد الرحمن العسوي قدس سره (١٨٣٤ - ١٩٠٥م)، ولد في قرية عَسَبْ بناحية شمويل لجمهورية داغستان، كان مأذونًا للشيخ جبرائيل أفندي قدس سره.

يقول عنه الشيخ حسن أفندي القحي قدس سره: كان قائماً بإذن شيخه المذكور على تربية المريدين وتسليك السالكين. ودُفِن في جدة في مكان قريب إلى قبر أمّنا حوّاء عليها السلام. «سراج السعادات في سير السادات» (ص ١٨٣).

عند هذا الحقير الفقير الكاتب، وسلك على يده حتى قطع المقامات الّتي بقي دُونَها بموت شيخه المذكور - قدس سره - فاستدللت بذلك على كماله وعلّمتُه المراقبات، ولازَمَ عليها مدّة من الزمان، وجاهد في تحصيل نتائجها، وتبيّن فضله لديّ، وجَهَد حتى وجد، وشمّر في ضمّ ما عندي إليه مراتبِ المراقبات التي وصلت إليّ بتلقين السادات أرباب المقامات، فبنآء على هذا أَرَدْتُ أن أجيز في هذه الطريقة النقشبندية إجازة تامة مطلقة عامة فشاوَرْتُ في ذلك بَعْضَ العارفين بالله تعالى شيخَنا ومربّي أرواحنا النقشبندي القادري الأويسيّ الشاذلي سيف الله الحسيني - قدس سره - بعد ما استخرت الله تعالى في حقه مرات وكرات فوافق رأيُهُ رأيي وحسّن نيتِي فأَسْعَفْتُهُ بما عندي رجآء للنفع العام بالدعوة لي بالتوفيق، وحسن الختام.

وأجزتُه بفضل الله تعالى بتلقين جميع أذكار السلوك، وتعليم مراتب المقامات الّتي علّمناه بعد انتسابه إلينا كما انتسب أربابُ السلوك، وأذنت له أن يتوجّه إلى جميع المنتسبين إلينا من المريدين، والمريدات، ويبدّلَ أذكارهم من لطيفة إلى لطيفة بعد حصول نتيجتها فيَدُه يَدِي، وقبوله قبولي، وردّه ردِّي، وهو خليفتي في حياتي، وبعد مماتي، ومن اتصل به فهو مَلْحُوظٌ بها في نظراتي مُدّةَ بقائي، وخَلْفَ فنآئي، وأُوصيه بالاستقامة، وإحيآء السنة، واجتناب البدعَة، وبالجُود بالموجود، وعدم التأسّف على المفقود، وملازمة الخضوع، والخشوع، وعدم التكبّر على أحدٍ من خلق الله، وتربية المريدين بمزج صفة الجلال مع الجمال، وخدمتهم كأنه وَاحِدٌ منهم بما عنده من الطّاقة، وعدم رؤية نفسه فوق أحدٍ من المؤمنين، وأرجوه أن يكون كامل الصدق، والإخلاص، وحامل الأذى من العوام، والخواص، ودائمَ الذكر،

والفكر، والمراقبة، ولازِمَ السكوت، والعزلة مع الصبر، والتوكّل والقناعة، نفع الله تعالى به العباد، وأزاح عن قلبه العِناد، وجعل مريديه بين يديه كالميّت بين يدي الغَسّال، آمين، آمين اللهم آمين.

وأجزتُه أيضا في قراءة الوظيفة الشاذلية صباحًا، ومساءً التي أولها الصلاة المشيشية الممزوجة، وفي قراءة الوِرْد الوارد في الطريقة الشاذلية كُلَّ يوم بعد صلاة الصبح، وبعد صلاة المغرب، وهو «لا إله إلا الله» مائة مرة، و«أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» مائة مرة بدون «العظيم»، و«الصلاة على النبي - عليه السلام -»، مائة مرة، وأُوصيه أيضا بالمداوَمة على ذكر الله تعالى حتى يكون كالغِذاء، وعلى الطهارة الحِسية، والمعنوية، والعفوِ عن الأمة المحمدية، وأساسُ ذلك كلّه تقوى الله تعالى، ومراقبتُه في السرّ، والعلانيَّة، فله أن يلقّن هذه الطريقة الشاذلية لمن أراد من الوافدين إليه، فإنّها لائقة بأحوال هذه البريّة.

وأجزتُه أيضا في قراءة الأحزاب الشاذليّة، وقراءة حزب الإمام محي الدين النوويّ، وحزبِ الإمام محي الدين العربيّ، وقراءةِ الحزب الأعظم لعلي القاري، وقراءة قصيدة البُردة للإمام البُوصيريّ.

وأجزته أيضًا بجميع ما يجوز لي روايته، وتصح عنّي درايته من معقول، ومنقول، فروع، وأصول إجازةً تامة مطلقة عامة بشرطها المعتبَر لدى أهل الحديث، والأثر، وهو كمال التثبت، والتحري، وأن يقول فيما لا يدري: لا أدري كما أجاز لي بذلك شيخُنا سيفُ الله المذكور قدس سره.

وأجزتُه أيضا بقراءة دلائل الخيرات بشروطه، وآدابه كما هي معلومة لديه غير مَخْفِيَّةٍ عنده.

وأجزتُه أيضا في سائر العلوم العقلية، والنقلية، والفِقهية، وفي روايةِ ما في صحيح البخاري، والكتب الستة، وله أن يجيز بما شاء من هذه المذكورات لمن شاء متى شاء، ولكنْ بعد التحقّق في أمانته، وصدقه، وإخلاصه، وأهليته، وأما ذكر سنن المشائخ المُجيزين المجازين في جميع ما ذكر فقد ضاق الوقت لكتبته، وسيأتي إليه البيان إن شاء الله تعالى.

وأجزتُه أيضا أن يكتب لكل داءٍ ومرضٍ سورةَ الفاتحة مُقطّعَة الأحْرُف بلا طَمسٍ للحروف محوا، وتعليقا، وأن يقول بحضرة المريض: (يا سلام) عدد مائة وعشرين مرة -١٢٠- نافثًا عليه من ريقه بعد القراءة للعدد المذكور.

وأُوصيه بأن لا ينساني من صالح دَعَواته عقب الوِرد رزقه الله تعالى نفي الوجود، والوفاء بالعهود، والقناعةَ بالموجود، والتوكلَ على الربّ المعْبُود، وجَنَّبه من الدّعاوى الكاذبة، وأدامه على رؤية القصور في الأعمال، والنيّات، اللهم آمين يا مجيب الدعوات.

قاله بفمه، ورَقَمَه بقلمه العبد الحقير المُعترِف بالعجز، والتقصير ترابُ نِعال الفقراء الصالحين حسن ولد محمد القحيّ الهِدليّ النقشبنديّ المحمودِيّ الخالديّ الشّاذِليّ -عفى الله عنه- آمين، حرر في خمسة عشر -١٥- من رمضان هذه السنة ألف وتسعمائة وأربع عشر وألف وثلاثمائة وثلاث وثلاثين -١٣٣٣- من هجرة المصطفى - صلى الله عليه وسلم -[1].

(١) منقول من الأوراق الخطية المأخوذة من ابن حفيد حبيب الله حاج القحيّ.

إجازة عبد الرحمن حاج العسوي لحبيب الله القحيّ في الطريقة النقشبندية

بسم الله خير الأسماء، ولله الحمد، والثناء، والصلاة، والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله المجتبى.

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، الحمد لله الذي خلق الإنسان لمعرفته، وكرّمه، وخصّه بالبيان، ونعّمه، وأمَرَه بالعبادة، وصيّرها أقوى، وأتم وسيلةَ القربة، والمعرفة، وعَلّمَها، وبيّن له طريقَ الحق في سالكه يَسّرَه. وأُصلّي، وأُسلّم على أشرف خلقه محمد خاتم النبيّين، وإمام المرسلين، وعلى آله، وأصحابه قُدوةِ السالكين، وزبدة الواصلين -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين-، وعلى العلماء المجتهدين، والأولياء المُرْشِدين.

وبعدُ لا يخفى على زُمرة أولي الألباب أنّ مناسك الشريعة المحمدية، وسالك الطريقة الأحمدية أعني به الكاملَ الفاضل العالم الحسيب النسيب الحاج حبيبَ الله ولد مرتضى علي القحيّ -صانه الله تعالى عن مَضرّات الكَونيْن- لَمّا اختار العزلة عن أهل الهوى، وقصد إلى صحبة الصلحاء، والعُرفاء رضاءً للمولى، -فللّه الحمد على حصول ما طلب، ووصول ما غَرُبَ- وجَهَدَ حتى وجد، هكذا وجد من جهد بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[1] الآية.

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

قد نزل إلينا[1]، وتبيَّن فضله لدينا حيث توسل إلينا، واشتغل بالرياضة، والعبادة، والذكر، والسلوك المشهور بَيْننا بَعْدَ إنابة منّا، ولقنّاه بلفظ الجلال بترتيب اللطائف، وعلّمناه رسومَ التفريد بالكلمة الطيبة، وأعلنّاه مراتب التوحيد، ووصّيناه أركان السلوك في الطريقة مع إمعان النَظَر في ظاهر الشريعة، وشَرَطْنا عليه ما هو مشروط على سالك طريقتنا النقشبنديّة العليّة، ورخّصناه بالتّلقين ذكر القلب للوصول إلى مَلِك الملوك، ويجعل الله تعالى -جل سلطانه- الطّالبين أمامَه كالميّت بين يدي الغَسّال بفضله المتعال، والشرط الأهم في وصِيّتنا الاستقامة ثم الاستقامة، وترك الشغل للشّغل، وإحياء السنة، واتباعُها، والاجتناب عن البدعة، والمباح الفضول، والله الهادي إلى الوصول، ومنه الرّشاد، وسنن التربية مشهورةٌ، ونحن عن كتابتها معذور، والله الهادي إلى الرُّشد، وإليه المآب، وأنا الفقير المسكين الحاج عبد الرحمن النقشبندي العَسَلِيّ، حرر سنة ألف وثلاثمائة وواحد وعشرين -١٣٢١هـ- ١٩٠٢م[2].

نشأته وطلبه للعلم

نشأ حبيب الله حاج في قرية «قَحِ»، ولقد علّم أبوه مرتضى علي ابنَه حبيب الله قراءةَ القرآن عندما كان عمره سبع سنوات.

وأخبرنا الحاج حبيب الله القحيّ قدس سره: أن رجلاً مِنْ «أَسْتَرَخَانْ» أخبره بأنّ عالماً كبيراً كان يُنكر الشيخ محمود أفندي كثيراً، ويَتكبّر عليه كثيراً، ففي ليلة نام ذلك العالم، فجاء الشيخ لديه في منامه، وضربَه بعصاه،

(١) جواب «لمّا».

(٢) منقول من الأوراق الخطية المأخوذة من ابن حفيد حبيب الله حاج القحي.

فاستيقظ العالـم، ونـام مـرة ثانيـة، فجـاء الشـيخ ثانيـاً فضربـه بعصـاه كذلـك، ثـم نـام ثالثـاً، ورابعـاً، وخامسـاً، وسـابعاً، ففـي كل نَوْمـةٍ ضربـه الشـيخ بالعصـا، ولـم يـترك العالـمَ ليسـتريح في تلـك الليلـة، فتفكّـر العالـم بعـد ذلـك، ونَـدِم علـى إنكاره على الشـيخ، وتنبَّـهَ، وعَلِـم أنّ الشـيخ صـادقٌ في دَعْـواه، فارتحـلَ صبيحـةَ ذلـك اليـوم لـدى الشـيخ، ووصـل لديـه، ووقـف عنـد البـاب بُعَيْـد مـن الشـيخ، ولـم يتكلّـم، فـإذا وقـع بصـر الشـيخ إليـه نـاداه وقـال: أي حمـار الـذي لا يتنبـه إلا بالضـرب سـبع مـرات، وبعـد ذلـك لـم يطـق ذلـك العالـم أن يتكلـم في مجلسـه بـكلام[1].

فـكان حبيـب الله في طلـب العلـم مجتهـدا وتَعلّـم مـن كبـار علمـاء داغسـتان في عصـره، وقـد أُرْسِـل حبيـب الله إلـى قريـة «مِأَتْـل» -Miatli- تلميـذا بعـد انتهـاء قـراءة القـرآن الكريـم، وتعلّـمَ معـه التلميـذُ علـي حـاج الإنْخِـي مـن عـام ألـف وثمانمائـة واثنيـن وخمسـين إلـى ألـف وثمانمائـة وثمـان وخمسين -١٨٥٨-١٨٥٢م - درَّسهم العالم عمر حاج.

ولا يمكـن التوضيـح أي علاقـة بيـن حبيـب الله، وعلـي حـاج إلّا أنّ حبيـب الله حـاج حتـى عندمـا كان مرشـدا سـافر إلـى «أَنْـدَري» لاسـتماع مِنْ عَلِـي حَـاج.

وقد احترم حبيب الله حـاج مشـخصاتِه كالعدالة، والشـاعِرِيّة، والمستَويات العالِيَـة مـن المعرفـة، وفي بعـض الحـالات اسـتخدم سـطورًا مـن قصائده.

مـرة خاطـب والـدُ فتـاةٍ حبيـبَ الله فسـأله: هـل يمكـن تزويـج بنتـه برجـل كان في نسـبه العبيـد، فتذكّـر الأسـتاذ كلمـاتِ علـي حـاج:

(١) «سراج السعادات في سير السادات» (ص ١٦٣).

(الفتاة المحِبَّة اتركوها بمحبوبها) فقال حبيب الله له: تزوج الفتاة بمن تريده، فتكون العائلة سعيدا، كلّ الناس مخلوق الله، ويتساوى بعضهم مع بعض.

قبل إكمال دراسته في قرية «مِأَتْل» عندما كان عُمْر حبيب الله أحد عشر (١١) سنة فقط بقي يتيمًا بعد وفاة والده مرتضى علي. فكان يعيش في المسجد كالطالب بدون أيِّ المساعدة من البيت.

وكان حبيب الله حاج أكبر سنًا في الأسرة، فبعد انتهاء الدراسة السريعة صار مسؤولًا عن كل شيء في الأسرة.

فكان له أخوان محمد ومحمد رسول صغيران، فكان مُضْطرًا لكسب المال، وبسبب ذلك سافرَ في الصيف، والخَريف للعمل، فبعدما صار أَخَوَاه كبيرين ساعداه في الكسب، ثم تُوفي الإخوة بسبب العمالة المفرطة، والجوع، والمرض، فدُفنت في قرية قَحِ.

شيوخه

١. أوّل أساتذه الذي اهتم بتعليمه، وأن يصير حبيب الله حاج عالماً مُتّبِعا للقرآن الكريم والحديث النبويّ أبوه مرتضى علي، فإنه بدأ يدرّس حبيب الله حاج القرآن الكريم حين كان عمره ست سنوات، فبعد الانتهاء أرسله إلى قرية «مِأَتْل» دون النظر على شدة الوقت، وصعب الزمان.

٢. عمر بن عبد الله الداغستاني الـمِأَتْلِيّ الأواريّ، ضياء الدين، من قرية «مِأَتْل» -miatli- الأَوَاريّة بداغستان. مفتي الآلائ التاسع بالمملكة العثمانية، العلّامة، الفقيه، المحدث، الصوفي، وُلد بداغستان

سنة ألف ومائتين وخمس وستين -١٢٦٥هـ.- وهاجر إلى إستنبول، ونزل مصر بُرْهةً، ودرّس الحديث بـ«الأَسْتانة» في الخانقاه خلفًا للعلامة إسماعيل نجاتيّ المتوفى سنة ألف وثلاثمائة وثمانٍ وثلاثين -١٣٣٨هـ.- إلى أن مات سنة ألف وثلاثمائة وأربعين -١٣٤٠هـ.- ووصفه الكوثريّ في تحريره بـ«المحدّث»: له نحو عشرين مؤلَّفًا بالعربية، والتُركيّة، والأواريّة، منها: «سنن الأقوال النبوية من الأحاديث البخارية» طبع في استانبول سنة ألف وثلاثمائة وثمان -١٣٠٨هـ.- عدد أحاديثه أربعة آلاف خمسمائة وواحد وأربعون -٤٥٤١- حديثًا، جمع فيه جميعَ ما في صحيح البخاري من الأحاديث القوليّة النبويّة محذوفة المكرّرات. و«زبدة البخاري» طبع في دار الكتب العربية بمصر سنة ألف وثلاثمائة وثلاثين -١٣٣٠هـ- عددُ أحاديثه ألف وخمسمائة وأربع وعشرون (١٥٢٤) حديثًا. و«ميزان حقّ الأقوال وماذا بعد الحق إلا الضلال» جزءٌ في بيان فرضية التّجويد على كل من كُلِّف بالصلاة من العبيد، في تسع وعشرين صحيفة، مطبوع، و«تجويد عُمَرِية خلاصة رسائل عربية وتركية» في خمس وعشرين صحيفة، و«الفتاوى العُمَرِية الميرطية الداغستانية في الطريقة العليَّة»، مطبوع في تركية، ورسالة في أصول الحديث، على طريقة السؤال والجواب، وغيرها.

توفي في إستنبول سنة ألف وثلاثمائة وأربعين -١٣٤٠هـ- ودفن في جامع السليمانية.

٣. عبد الرحمن حاج أفندي قدس سره أحد كبار شيوخ داغستان نهاية القرن التاسع عشر وبداية عشرين، ولد في قرية «عَسَبْ» سنة ألف وثمانمائة

وأربع وثلاثين -١٨٣٤م -١٢٥٠هـ- بدأ بطلب العلوم الشّرعية من الصّغر، وكان شيخه في الطريقة جبرائيل أفندي قدس سره.

وقد تُوفي عبد الرحمن حاج سنة ألف وتسعمائة وسبع -١٩٠٧م -١٣٢٤هـ- حين الإياب من الحج، ودُفن في جدة، بجانب قبر أم البشر «حواء».

٤. حسن حِلْمِي أفندي بن محمد بن حسين القحيّ الداغستانيّ النقشبنديّ الشاذليّ القادريّ قدس سره، ولد في قرية «قَحِ» من قرى ناحية «هِدْ» سنة ألف ومائتين وثمانين -١٢٨٠هـ.

تلقيه العلوم: فلمّا بلغ إلى سبع سنين بدأ بقراءة القرآن بنفسه بلا داعٍ، ولا هادٍ إليها. فطلب العلم من العلماء الأجِلّة المخلِصين، الورعين، فصار ماهرًا حاذقًا في جميع العلوم، والفنون. وكان ساترًا لأحواله بحيث لا يَقدِر أحدٌ أن يطَّلع على أحواله، وأسراره.

تصانيفه:

١) تنبيه السالكين عربا، وعجما منظوما.

٢) تلخيص المعاريف في ترغيب محمد عارف.

٣) خلاصة الآداب عجما منظوما.

٤) البروج المشيدة بالنصوص المؤيدة.

٥) السفر الأسنى في الرابطة الحسنى.

٦) سراج السعادات في سير السادات.

٧) الدرة البيضاء في رد البدع، والأهواء.

٨) جهد المقل في ردّ شطحات المنكر المضلّ.

٩) فيض الرحمن في ذكر كلام عبد الرحمن.

١٠) وسائل المريد في رسائل الأستاذ الفريد.

١١) الجوهرة النفيسة في إعانة الطريقة النقشبندية[١].

١٢) مجموعة فتاوى أهل التحقيق في مسألة جمع الثلاث من التطليق.

١٣) الأجوبة القحِية لأسئلة الإهليّ.

١٤) زبدة فضائل صلاة الفاتح.

١٥) الملتقطات القَحِيّة من رشحات عين الحيات.

١٦) تلخيص الكلام الحسن من مقالات حسن أفندي القحي.

١٧) مختصر نفائس السانحات في تذييل الباقيات الصالحات.

١٨) رسالة إلى العالم الفاضل محمد الحركلي.

أصدقائه

فكان من أصدقائه السائل العالم إبراهيم دِبِر بن دِمِشْ بن محمد الهُؤُرِي الأَوَرِيّ، فلّاحٌ، وُلِد سنة ألف وثمانمائة وتسع وأربعين -١٨٤٩م- في قرية «هُؤُرْ»، وحُبِس في يُولِيُو التاسع وعشرين (٢٩)، سنة ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين -١٩٣٧م.- له مصنّفات كثيرة، وقد أعطى كلّ كتبه لطالبه المحبوب عبد الحميد العوري الداغستاني، وكان

(١) «تنبيه السالكين إلى غرور المتشيخين» (ص ١٠-١٥).

مـن أسـاتيذه عمـر ضيـاء الديـن الداغسـتاني وتـوفي سـنة ألـف وتسـعمائة وثمـان وثلاثيـن - ١٩٣٨م[1].

فقد بحثت عن صورته فما وجدت إلا أنه معلوم في قرية «هؤر» وقرية «عُرِب» أنّ العالم عبد الحميد العوري كان من أحب تلامذه، فوجدت صورةَ عبد الحميد وبجانبه الشخصُ الآخرُ فقال بعض أقاربه عن إمام قرية «هؤر» دبر محمد بأن هذا الشخص تسعون بالمائة هو إبراهيم دبر الهؤري والله أعلم.

والعالم الفَطِن المعاصر محمد عبد الرشيد الْهَرَكَانِيّ الذي قال بوجوب اتّباع الكتاب والسنة إلى آخر ما أطال به، فبدأ حبيب الله القحيّ الجواب بالعبارة التالية: (بيد أن هذه الدعوى، من أصحاب هذا الدين الجديد مما لم يحدث إلى ديارنا إلى الآن، ولكنّه مع أنّه من الأمراض السّارية آرى من الواجب العينيّ على مَنْ في لحمه أدنى دم الإيمان إظهارَ ما عنده في إنكارهم حسب الإمكان، وإلّا فالسكوت على ذلك من أعظم العار لا لمثلي، بل لعلمائنا الأخيار). فإنّ حبيب الله أعطى له الجواب الوافيَ الشافيَ الواضحَ[2].

ثناء العلماء عليه

قال الشيخ محمد بن حسين العوري: فإنّ أخانا حبيبَ الله لا يتكلّم بكلامٍ لا ينفع[3].

---

(١) مأخوذة من كتب إبراهيم دبر الهؤري المختلفة، والأوراق الخطية الموجودة في قرية هؤر وعور.

(٢) المخطوط المتكون من عشرين صفحة لحبيب الله حاج القحي.

(٣) «تنبيه السالكين إلى غرور المتشيخين» (ص ٤٠).

مؤلّفات الشيخ حبيب الله القحيّ

ومن مؤلّفاته في العقيدة كتابُنا الذي بين يدينا «بيان الأسرار في سرّ الأقدار».

ومن مؤلفاته في الفقه وأصوله الرسالة التي يبدأ فيها بـ(بسم الله الرحمن الرحيم... إلخ) مباشرة ويجيب فيها على سؤال العالم الفَطِن المعاصر محمد عبد الرشيد الهَرَكَاني في وجوب اتّباع الكتاب، والسنة إلى آخره. فتتكوّنُ الرسالة من عشرين صفحة في كل صفحة من ٢٢ -٢٠ سطرًا.

نسبة المخطوطة إلى مؤلفها

المخطوط الذي حققناه ينسب إلى حبيب الله، فإنه يُشير على ذلك في آخر الكتاب بقوله :)وقد أخرجته من السواد إلى البياض في أواخر شهر صفر من سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وخمسين-١٣٥١- هذا، والسلام، وبالدعاء أُوصيكم، وأنا الحقير الضعيف حبيب الله... إلخ).

النسخ الخطية للكتاب

فإن النسخ لهذا الكتاب مفقودة، بل هذه نسخة أصليّة، نسخة المؤلِّف. فإنّي أخذتها من أخي الشيخ حديث دبر أحدِ خريجي الدراسات العليا في داغستان، المتخصص في العقيدة، فإنه أرسل التصويرَ إلى بريدي الإلكتروني.

يتكون المخطوط من ست وستين (٦٦) صفحة، وفي بعض الصَفَحات توجد التعليقات، وفي كلّ صفحة ما بين (٢١-١٩) سطرا.

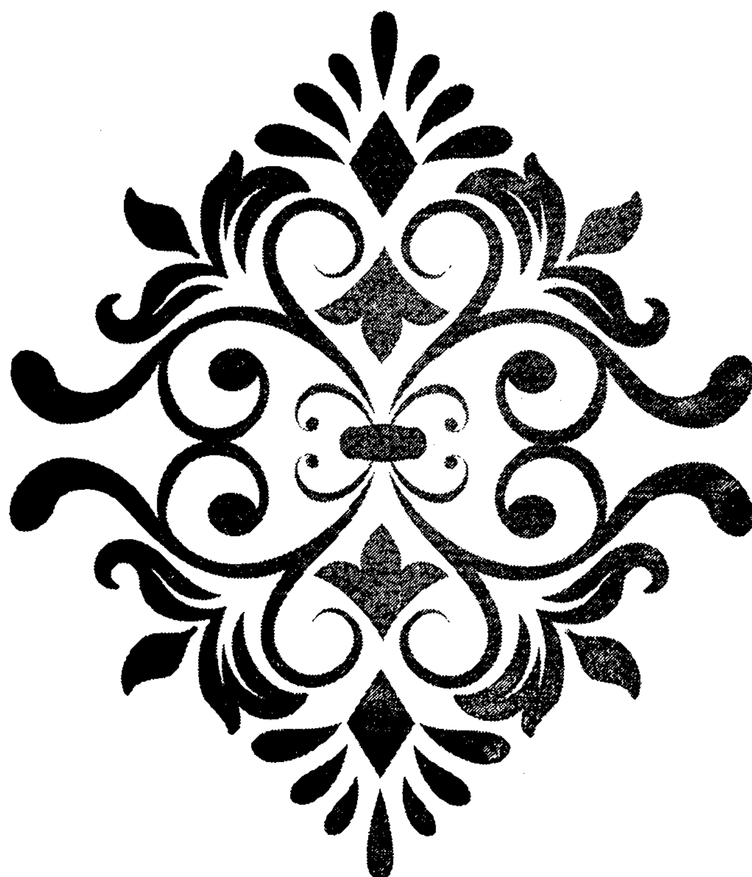
أما الصفحة الأولى فقد ذُكِرَ فيها اسم الكتاب «بيان الأسرار في سرّ الأقدار» وذُكِر اسم المؤلِّف، وسَنَة الكتابة، فأتى بذكر قول الإمام الشافعيّ، ووصية الكاتب محمد طاهر القراخيّ، ثم ذكر تقريظ العالم كَلَجْ الطِدِيِّ[1]، وتبدأ كتابة المخطوط من الصفحة الثانية، بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، فذكر حبيب الله سؤالَ إبراهيم دبر الهؤري كاملًا بذكر الآيات، والأحاديث، ثم أتى بالجواب. وكل صَفَحاتٍ موجودةٌ إلّا(٣٦-٣٥) فما وجدناهما، وهذا لا يُخِلُّ بالمعنى. وهي مكتوبة بخطٍّ عريضٍ أسود، ومعظمه واضح مقروء، وعلى الهوامش تعليقاتٌ، وفوقَ الآيات خطٌّ أسود، وصحائفُه مرقمة.

منهج العمل في المخطوط

- إصلاح ما يَظْهَرُ في النص من تحريف أو تصحيف أو خطأ لغويّ أو إِمْلائيّ مع الإشارة في الهامش إلى ما في المخطوطة.
- الضبط بالشكل لبعض الكلمات، والأعلام التي قد تلتبس بغيرها.
- تفسير الكلمات الغريبة.
- ذكر العناوين في المتن وأرقام الصَفَحات في الهامش.
- عزو الآيات القرآنيّة إلى مواضعها في المُصحف الشريف.
- تخريج الأحاديث النبويّة من مصادر السنة النبوية المعتمَدَة، وذكرها في الهامش كاملًا.
- تخريج الأقوال بعزوها إلى مصادرها.
- ترجمة مختصرة للأعلام، والأماكن، والمِلَل.

(١) كَلَجْ بن أبجلو بن أحمد (ت ١٩١٦ هـ) كان إماما وعالما.

- بيان معاني المصطلحات العلميّة عند المتكلّمين.
- التزام الرسم الإملائي الحديث في تحرير نص الكتاب، ووضعُ علامات الترقيم.
- وضع فِهْرِس العام.
- وحينما كُتب في الهامش: »وفي الهامش« يعني هامش المخطوطة
- ما يوجد في بعض المصادر والمراجع التي اعتمد عليها المؤلف، فأتينا بالمصادر والمراجع التي فيها نفس العبارة.



صور من المخطوطات المعتمدة في تحقيق

بيان الأثر في نصر الأقدار

تأليف العبد المفتقر الى رحمة الله المقتدر
حبيب الله ذبر القمي عليه رحمة الله الاحد
١٣٥١ من قطر
سنة

قال الامام الشافعي رضي الله عنه كم من كتاب قد تصفحته وقلت في نفسي لقد صححته
ثم اذا طالعته ثانيا وجدته تصحيفا فاصلحته
وما احق ما قاله بينما العلماء الشاهد وقلبنا اللاهي فعليكم وعليكم وعليكم
باحكام تصحيح كلما كتبتموه او علقتموه وصية الراجي محمد طه العراقي

ولما نظرت الى ما كتبه هذا الاخ المحقق العالم المدقق الفاضل
حبيب الله القمي من اوله الى آخره جوابا للقاضي ابراهيم المهوري في اشكاله
على الآيات اللاتي تصارع عليها الحزبان وتنازع فيها الفرقتان
من الاشاعرة والمعتزلة وجدته كلاما صافيا منقولا من كلام
السادات الكرام اذ افتنا الله من قشرهم ولو رغافهم دمهم
وجعلنا ان يكتب بالنبر الاحمر على خدود علماء الظاهر بحيث يزيل
اشكاله وينقطع به شبههم ولا عجب في ذلك لكونه هذا المحقق
ممن افاض عليه شيئا من بركة الانام ووهب منها كل يوم على الدوام
فلله دره واليه سعيه من اضعف الفقراء وادنى الغرباء صاحب
الكتابة رفيقهم الاقوام [illegible] من قطر

ولا شك ان [illegible] العبد [illegible] مع القدر [illegible] والافتقار [illegible] يكتبه له [illegible] ١٣٨٩ [illegible] والعقاب [illegible]

الصفحة الأولى

اللوحة الأولية

اللوحة الأخيرة

مقدمة بيان الأسرار في سِرِّ الأقدار(١)

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة، والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله، وأصحابه أجمعين، آمين يا أرحم الراحمين.

وبعدُ: فقد أبدى لنا الأخ الخبير والخِلُّ(٢) الوفير، فريد العصر، وحيد الدهر، إبراهيم دبر الهؤري، - عليه مراحم الإله الباري - سؤالًا مستصعَبًا(٣) جِدًّا، وكنت تَوقّفت في الجواب له زمانًا مديدًا، علمًا منّي أنّي لست أهلا له أبدا، وأني لا أجد له جوابًا شافيًا يُزيل عن القلب صدى(٤)، بيد أنّي أُلْهِمْتُ أنّه ليس للسلام من الرد بدٌّ، ولا للسؤال من الجواب بُعْدٌ، ولو بقَول: (لا أدري) الذي هو نصفُ العلم، كما هو شأن أهل الحِلم، كما في الحديث على قائله - الصلاة والسلام -: «رَدُّ الْجَوَابِ لِلْكِتَاب كَرَدِّ السَّلَامِ»(٥). انتهى.

---

(١) وفي الهامش: تأليف العبد المفتقر إلى رحمة الله المقتدر حبيب الله دبر القحي عليه رحمة الله الأحدي ١٣٥١ سنة من خطّه. قال الإمام الشافعي - ﷺ - : كم من كتاب قد تصفحته، وقلت في نفسي لصححته، ثم إذا طالعته ثانيا، وجدته تصحيفا فأصلحته وما أحق ما قاله - سيما لقلمنا الساهي وقلبنا اللاهي -: فعليكم وعليكم وعليكم بإحكام تصحيح كل ما كتبتموه أو تملكتموه وصية الزابر محمد طاهر القراخي.

(٢) والخل، بالكسر والضم: الصديق المختص «القاموس المحيط» (ص ٩٩٤).

(٣) وفي الهامش: أي متعسّر الجواب منه رحمه الله تعالى ولكنه يسير على من يسّره الله تعالى من أهل المشاهدة (منه).

(٤) فسرها الناسخ في الهامش «العطش».

(٥) «الأدب المفرد» (ص٦٢٧).

فخضت فيه مستمدا بمدد من الله تعالى ومستعينًا بعونه - عز وجل - وتبرّكًا ببركة ساداتنا العظام، وشيوخنا الفِخام - قدس الله أسرارهم - وأفاض علينا من فيوضاتهم.

وحروف سؤاله بعينها هذه: (التي نقرأها: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[1] ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[3] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[4] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[6] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[7] ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[8] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[9] ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[10] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[11] ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[12]

---

(١) الأنعام: ٣٥.
(٢) الأنعام: ١٤٩.
(٣) يونس: ٩٩.
(٤) يونس: ١٠٠.
(٥) النحل: ٩٣.
(٦) القصص: ٥٦.
(٧) السجدة: ١٣.
(٨) المدثر: ٥٦.
(٩) الإنسان: ٣٠، التكوير: ٢٩.
(١٠) الأنعام: ١٢٥.
(١١) الأنعام: ١١٢.
(١٢) الأعراف: ١٨٦.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[1] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[2].

«كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ...» الحديثَ[3] وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَنْ عِلْمِ اللهِ تعالى»[4] الحديث من المصابيح[5].

«فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العبادِ: فريقٌ في الجنَّةِ: وفريقٌ في السَّعيرِ... الحديث[6] من «فتح المبين» [أي:] انتهى تقدير سعادتهم، وشقاوتهم في الأزل ح[7]. فيقول: «أَشَقِيٌّ أم سَعيدٌ»[8] إلخ الحديث، فمع هذه الآيات، والأحاديث فما فائدة التّكليف؟ فإذا لم يشأ الله تعالى هدايةَ العبد، وأراد شقاوتَه، فكيف العقاب له بما شاء الله، وأراد؛ فإن قلتم: بمباشرة العبد، وكسبه بالفعل فكيف المباشرة[9]، والكسب إلاّ بإقدار الله تعالى للعبد، وإرادتِه مع أنّه ليس له قدرة، ولو لتحريك أِصبعه

---

(١) البقرة: ٢٧٢.

(٢) الإسراء: ٤٦-١١١.

(٣) «صحيح مسلم» (٢٥٧٧).

(٤) «مسند الإمام أحمد» (٦ / ٢٠١).

(٥) «مشكاة المصابيح» (١ / ٣٥).

(٦) « سنن الترمذي» (٢١٤١)، «السنن الكبرى» (١١٤٠٩).

(٧) أي: الحديث.

(٨) «صحيح مسلم» (٢٦٤٤).

(٩) لعلّ «وليس».

بنفسه إلّا بالله تعالى، وقلبه عنده كَريشٍ في فَلاة[1] يُقلّبها الرّياح ظهرًا لبطن، وبطنًا لظهر؟

وما فائدة الدعاء بما قاله النبي - ﷺ -: «اللَّهُمَّ يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قَلْبِي عَلَى...»[2] إلخ، و«اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي»[3]. بعد ذلك، وما فائدة البعثة، والإنزال، والوعظ للخلائق مع علمه تعالى، وإرادتِه، وكَتْبِه في الأزل أنّ العبد شَقِيٌّ، ألا يكون ذلك كالنطق على الصَّخرة الصَمّاء[4]، وتكليفًا بما لا يطاق أم لا؟)

الجواب[5]: هداك الوهّاب إلى الصّواب أيّها العالم العليم، عمدة الحين حبيب الله دبر القحيّ، ومعلوم عندنا وعندكم ما في شيخ زاده[6] وإبهاج[7]

---

(١) الفلاة: القفر، أو المفازة لا ماء فيها، أو أقلها للإبل ربع، وللحمير والغنم غب أو الصحراء الواسعة، ج: فَلاً وفَلَواتٌ وفُلِيٌّ وفِلِيٌّ، جج: أفْلاءٌ. «القاموس المحيط» (ص ١٣٢٢).

(٢) «الأدب المفرد» (ص ٣٥٨).

(٣) «المفاتيح في شرح المصابيح» (٣/ ١١٨).

(٤) حَجَرٌ أصَمُّ، وصَخْرَةٌ صَمَّاءُ: صُلْبٌ مُصْمَتٌ. «لقاموس المحيط» (ص ١١٣٠).

(٥) وفي المخطوطة: الجواب.

(٦) حاشية شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي. قال في تفسير الآية: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ولو شاء الله جمعهم على الهدى لوفّقهم للإيمان حتى يؤمنوا ولكن لم تتعلق به مشيئته فلا تتهالك عليه. (٤ / ٣٨). وفي تفسير الآية: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين. المرجع السابق: (٤/ ١٦٩). وغير ذلك من الآيات المذكورة في السؤال.

(٧) «الإبهاج في شرح المنهاج» شرح على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي (ص ١١٧-١٢١).

وشروح العقائد[1]، واه واه[2] في حق ذلك، فبها لا ينقطع الإشكال في ظنّي إلاّ أنْ نَلتجأ إلى قول الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[3] انتهى فهذا، والسلام إليكم من أسير وُدّكم الكاتب الحقير إبراهيم دبر الهوْري انتهى من خطّه.

فأقول: أنّي الفقير المَهِين[4] الذي لا يكادُ يُبِينُ، وإن كان هذا من حمل الفقه إلى من هو أفقه منه، والله الموفّق، ومن عنده المحقّق.

اعلم[5] أيّها الحِبْر، واسمع يا هذا البحر، أنّ هذه المسألة مما تحيّرتْ فيها أفكار الفقهاء، والعُرَفاء، وتقاعدَتْ عليها أنظار الخواص، والخُبَراء، ولم تَبْلُغْ إليها أفهامُ الأقوام، والفقهاء، ولم يزلْ فيها إشكال العَوامِّ، والعلماء حتى قال حجة الإسلام الغزالي[6] الذي هو من الأصفياء، والكُبَراء: (إنها لم يزل إشكالها أبدا الآبدين، ودهر الداهرين، ولو للرّاشدين من الخلفاء إلّا مِنْ طريق الكشف لأهل الله العلماء)[7]، و[8]أهل الكشف عَزِيزُون في الوجود بلا مِراء لا سيّما في هذا الزمان الفاتح لكل

---

(١) «شرح العقيدة النسفية» (ص ٦٦).

(٢) هذا يدل على التألم والتوجّع.

(٣) الأنبياء: ٢٣.

(٤) المهين: الحقير، والضعيف، والقليل، «القاموس المحيط» (ص ١٢٣٦).

(٥) وفي هامش المخطوط: مقول أقول.

(٦) حجة الإسلام، أبو حامد، الغزالي، تفقه ببلده أولا، ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة فلازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه. «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٦٧).

(٧) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ٢٠٠).

(٨) وفي الهامش: حال.

بأسآء، الخاتم لكل سراء، حتى إنّ الله تعالى قد طَوَى[1] علم سرّ القدر أحد[2] من الرسل، والأنبياء، والملائكة، والأولياء، ما عدا محمدًا رسول الله - ﷺ -، ومَن وَرِثه فيه مِن كُمَّل الورثة المحمّديين الأزكياء، وقد عَدُّوا هذه المسألة مِنْ سرّ القدر بإجماع العُرفاء، فالإمساكُ عن طلب الإدراك بحقائق أحكام القَدَر، والقضاء، وبدقائق الإرادة، والرضاء، وعن المنازعة، والسؤالِ بـ«لِمَ» و«كَيْفَ أمر بهذا» هو الأسلمُ لنا بلا خفاءٍ، ومَنْ خاضَ في ذلك حار في عَمْياء، وخَبْط عَشْواء[3] فأَمْرُ ذلك نردّه إلى الله تعالى. وعندنا غاية المعرفة هي العجز عن المعرفة، وكيف كان، يَجب[4] الإيمان بالقدر، والقضاء، وبالكتاب، والسنة، والله يقول الحقَ، وهو يَهدِي السبيل، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[5] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[6] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[7].

---

(١) طَوَى الحَديثَ: كتَمَهُ. «القاموس المحيط» (ص ١٣٠٨).

(٢) وفي الهامش: وفي الأصل علّه «كل أحد» كاتب.

(٣) ويقال: وركب فلان العشواء إذا خبط أمره على غير بصيرة «لسان العرب» (١٥/ ٦٠).

(٤) وفي الهامش: عن محمد رحمه الله أنه قال: إنا نؤمن بما جاء من عند الله تعالى ولا نشتغل بكيفيته على ما أراده الله تعالى، وبما جاء من عند رسول الله - ﷺ - على ما أراده رسول الله - ﷺ - وهو اختيار كثير من كبراء الأئمة وعلماء أهل الملة. «بحر الكلام».

(٥) النجم: ٣-٤.

(٦) النساء: ٨٧.

(٧) لأنعام: ١١٥.

مجموع الشريعة افعلوا كذا واتركوا كذا

قال في «المنن» في (١/ ٢٧٥): (وكان أي: عليّ الخوَّاص[١] يقول: لا يَسْلَم من الجِدال في كلام الله تعالى، وكلام رسول الله - ﷺ - إلّا من كان إيمانُه كاملًا، ووقف عند ظاهر ما حدّه الله تعالى، ورسوله من الأوامر، والنواهي فإنّ مجموع الشريعة افعلوا كذا، واتركوا كذا، وهذا لا يقف فيه فهم) إنتهى.[٢]

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾[٣] مُشعِر من لم يُصدّق بكتابٍ، وسنة فجوابه أن لا تجيبَ، وتسكتَ.

فبعد التي، واللتيا اللهم نَعَمْ الأمرُ كما قلتَ يا إبراهيم دبر، وليس لأمثالنا أهلِ التخفية من الحُجَج[٤] التي تُقرّب منها أفهامَنا القاصرةَ في مثل هذه المسألة ما فوق آية ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[٥] بَيْدَ أنه ستعرف إن شاء الله حُجَجًا أُخْرَى، وأجوبةً خُبْرَى تُقيم بها الحجة لله تعالى، ولكن مآلُها، وإشارتها آخرًا إلى مُفَادِ تلك[٦] الآية، وإن اختلفتْ بالعبارات فتَأَمَّلْ، وتَرَقَّبْ.

---

(١) عليّ الخوّاص أحد العارفين بالله تعالى، وأستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعراني الذي أكثر اعتماده في مؤلفاته على كلامه وطريقه، (ت ٩٣٩ هـ)، «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١٠/ ٣٢٧).

(٢) «المنن الكبرى» (ص ٥٢٤).

(٣) الحج: ٦٨.

(٤) وفي الهامش: ليس لنا من الحجج ما فوق آية.

(٥) الأنبياء: ٢٣.

(٦) وفي المخطوطة: فوق (تلك) كتب رمزا يعود إلى آية ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾.

نعم ينبغي أن يعلم هنا ما هو المعلوم من مواضع كلام أهل العِرفان الذين هم حُكماء الأوان، من أنّه ليس للعبد مع الله تعالى إرادةٌ، ولا اختيارٌ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[1] فالإرادة، والاختيار في العبد فانيان في إرادة الله تعالى، واختيارِه - سبحانه -، ومع ذلك لا يُمنَع نسبة الإرادة، والاختيار للعبد على قصد الاعتراف لله بالحُجة البالغة عليه.

فتسمية الخلق عصاةً بحسب الأمر الحُكْمي لا الحَقيقيّ، وأمّا في الحقيقة فلا يخرجون عن طاعته فيما يريده منهم، فمن أراد منه طاعةَ الأمر لا يمكنه المخالفة، ومن أراد منه معصية الأمر لا يمكنه الطاعةُ، فجميع الخلق تحت إرادة الله السابقةِ في علمه الأزليّ لا يخرجون عنها، وهم الأصغرون من أن يُخَالِفَ الله تعالى، مستقلّين بلا إرادةٍ سابقة لله تعالى، فالعبد مطيع للإرادة السابقة في جميع أفعاله عاص للأمر الظاهر، فمن نظر إلى الخلق بعين الحقيقة عَذَرَهم، ومن نظر إليهم بعين الشريعة مَقَتَهم، ومع ذلك لا بد لنا وأن نقوم بما كُلّفْنا به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكَر، وذلك أيضًا بالإرادة السابقة فقد يريد منّا السكوتَ على المنكر فلا يمكننا النطقُ بالنهي عنه، وقد يريد منا التغيير منه فلا يمكننا السكوت عليه.

الأمر والنهي باقيان أبدًا بشرطه

فالأمرُ، والنهي باقيان أبدًا بشرطه، وكلّ شيء بَرَز بعد الأمرِ، والنهيِ من الموافقة، والمخالفة، وهو السابق في علم الله تعالى، ومما جفَّ به القلمُ، ومع ذلك إنّ مؤاخذة العُصاة بما فعلوه لأنّهم سبب في إيجاده،

---

(١) القصص: ٦٨.

وقامةٌ أنشأَتْه، ومحلٌّ للقدرة الإلهيّة، فنسبة العمل إليهم في نحو قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] مجازيةٌ بملابسة كون عملِهم يرى عِيانًا، وعملِ الله تعالى لا يرى إلّا إيمانًا، والإيمان لا يقوى عندنا على العِيان كما يقال: ليس الخبرُ كالعِيان، ولا المسموع كالمرئيّ. فالعبد هو الفاعل لأعماله الاختيارية كحركة البطش[2]، لا الاضطراريةِ كحركة الارتعاش[3] إسنادًا لا إيجادًا.

ومن هنا صحّ تَعَلُّقُ التّكليف به، وتَوَجُّهُ الخِطَاب إليه، وتَرَتُّبُ الأحكام عليه، ولا ينبغي لنا أن يقال: (إنّ العبد مقهورٌ في عَيْن الاختيار)؛ لأنّ في ذلك سوءَ أدبٍ مع الله تعالى، وإن كان ذلك القول صحيحًا في نفس الأمر؛ لأنّه يرجع إلى رائحة إقامة الحجة على الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

ابن الشريعة

فابن الشريعة نَظَر إلى الخلق بعين الحُكْم الظاهر، وبنى أمرَهم من فقير، وغيره على المعايَن من الأعمال.

ابن الحقيقة

وابن الحقيقة نظر إليهم بعين الحكمة الباطنة فلا يَرَى جميعَ أعماله طاعةً أو معصيةً إلّا من الله تعالى ولا يرى لنفسه شيئا من عمل، ورضاء، وسَخَطٍ، ولا يُرجّح شيئًا على شيء، ولا يُؤْثِرُ حالًا على حال، وكل شيء عنده سواء فهو راضٍ عن الله تعالى في كل حالة هو فيها، لكن إن كان معصيةً

---

(١) آل عمران: ٥٧.

(٢) والبطش: الأخذ القوي الشديد. «لسان العرب» (٦ / ٢٦٧).

(٣) ارتعش أي: ارتعَدَ. «مختار الصحاح» (ص ١٢٤).

في الشرع فيرضى بها من حيث كونُها فعلَ الله، ويتوب عنها، ويستغفر من حيث اكْتَسَبَها، وخالفَ أمرَ الله تعالى بَعْدَ أن نصب له الدلائل، وأرسل إليه الرسل، وخلق له العقل.

ومنظر الابنين متبايِن، فلم يصحّ بناءُ الحكم في الظاهر على الحكمة الباطنة بل وجب إظهار الأمر الظاهر، وإبطانُ الأمر الباطن خشيةَ المعارَضة بين الابنين، كأنْ قال الابن الباطني: (إني سبق لي الكتاب، وفيه سعادتي، وشقاوتي فلا نفع لي في العمل[1]، وإني أُفوِّضُ أمري إلى ما سبق في الكتاب)، وكأن عارضَه الابن الظاهريّ؛ بأنه قد جاء الأمر، والنهيُ من الله تعالى بواسطة الرُّسُل، والكُتُب، وأنا عبدٌ، ومن شأن العبدِ العبوديةُ امتثالًا بالأمر، والنهيِ، وأنه ينفعُني العملُ كيف كان لأنّي إن كنتُ سعيدًا احتاجت[2] إليه لزيادة الثواب، وإن كنتُ شقيًّا احتاجت[3] إليه كيلا لَوْمَ على نفسي مع أنّه لا يعاقبُني على الطاعة بكلّ حال، وقد وَعَدَ الحقُّ تعالى بالثّواب على الطاعة، وبالعقاب على المعصية و﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[4]، وفي ذلك[5] أيضا حَذَرٌ من تعطيل الخَلق عبثًا اتّكالًا على ما في الباطن بلا همة إلا في الأكل،

---

(١) وفي الهامش: أي وإن كثر ولا ضرر فيه وإن قل وإن ما سبق فيه واجب الحصول. (منه).

(٢) وفي المخطوطة: احتجت

(٣) وفي المخطوطة: احتجت

(٤) المزمل: ١٨.

(٥) وفي الهامش: أي في عدم بناء الحكم في الظاهر على الحكمة الباطنة. (منه).

والنوم، واللّهو، واللّغو، كـ ﴿ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١ ﴾[1] ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[2] ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[3].

الشرع لا يترك العبد لرفع رأسه

والشأن أنّ الشرع لا يترك العبد؛ لرفع رأسه، فما له من حركة، وسكون إلّا وللشرع حكمٌ عليه بما يراه، قال الإمام الرّبّاني[4] - ﷺ- في «المكتوبات» في (١/ ١٠): (وبالجملة: أنّ ما هو القطعيّ الحقيقيّ بالاعتماد هُو الكتاب، والسنة فإنّهما ثبتا بالوحي القطعيّ، وتقرّرا بنزول المَلَك. وإجماعُ العلماء واجتهاد المجتهدين يعني القياس راجعانِ إلى هذيْن الأَصْلين، وما وراء

---

(١) المدثر: ٥٠-٥١.

(٢) القيامة: ٣٦.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

(٤) أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السِّرْهِنْدِيّ النقشبنديّ -المشهور بالإمام الرباني المعروف بمجدّد للألف الثاني، يتصل نسبه بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثمان وعشرين واسطة. ولد سنة (٩٧١ هـ). وكان في صباه منظوراً بنظر عناية الشيخ شاه كمال القادري. حفظ القرآن المجيد في مدَّة يسيرة، ثم اشتغل بتحصيل العلوم، وبرع في العلوم كلِّها على أقرانه، وصنَّف بعض الرسائل كـ«الرسالة التهليلية»، و«ردّ الروافض». من أشهر مؤلفاته «مكتوبات» ترجمه إلى العربية محمد مراد المنزلوي في مجلدين وسماه «الدرر المكنونات». غمض عينيه عن الدنيا في يوم الثلاثاء السابع والعشرين (٢٧) من صفر سنة أربع وثلاثين وألف (١٠٣٤هـ). ثم صلى عليه ولده الأكبر الشيخ محمد سعيد مع الخواص والعوام، ودفنوه في قرب المسجد مما يلي قبر والده الأرشد الشيخ محمد صادق قدّس الله تعالى سرَّهما. «رسائل عن النورسية» (١٤/ ١٢١)، «طبقات الخواجكان النقشبندية» (ص ٣١٥-٣٢٦).

هـذه الأصـول الأربعـة كائنـا مـا كان، إن كان موافِقـا لواحـد مـن هـذه الأصـول فهـو مقبـولٌ، وإلَّا فـلا وإن كان مـن علـوم الصوفيـة، ومعارِفِهـم البهيّـة، ومـن الإلهـام، والكُشُـوفات السنيّة.

فـإنّ الوَجْـدَ[1]، والحـال[2] لا يشـترى هنـاك بنصـف شـعيرة مـا لـم يـوزن بميـزان الشـريعة.

والإلهـامُ والكُشُـوفُ لا يقبـل علـى نصـف دانـقٍ مـا لـم يُجَـرَّب بِمِحَـكِّ الكتـاب، والسـنة) انتهـى[3].

(شعر:

ومن الْمُحَالِ السيرُ في طرق الصفا * يا سعدُ مِنْ غير اتباع المصطفى)[4]

وعلـى هـذا لـو رأينـا الصـوفيَّ يَطيـرُ في الهـواء، ويتربّـع في جـوّ السّـماء نُنكـر عليـه، ولا نَعبأ[5] بـه إلاّ إن كان أمـره مضبوطًـا علـى الكتـاب، والسنة كمـا قـال الشـعرانيّ[6] - قـدس سـره - في «اليواقيـت» في ٢٤١ عـن السيد

---

(١) الوجـد: مـا يصـادف قلبـك، ويـرد عليـك بـلا تعمّـد وتكلُّـف. «الرسـالة القشـيرية» ((ص ١٣٩).

(٢) الحـال عنـد القـوم: معنـى يـرد علـى القلـب، مـن غيـر تعمـد منهـم، ولا اجتـلاب، ولا اكتسـاب لهـم، مـن: طـرف أو حـزب، أو بسـط، أو قبـض، أو شـوق أو انزعـاج، أو هيبـة، أو احتيـاج. «الرسـالة القشـيرية» (ص ١٣٣).

(٣) «المكتوبات الربانية» (١ / ٤٠٧).

(٤) «المكتوبات الربانية» (١/ ٢١٧).

(٥) ما أعبأ بفلان: ما أبالي، «القاموس المحيط» (ص ٤٧).

(٦) عبـد الوهـاب الشـعراني، (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٣ - ١٥٦٥ م)، ولـد في قلقشـنده بمصـر في ٢٧ رمضـان، ونشـأ بسـاقية أبـي شـعرة مـن قـرى المنوفيـة، وتـوفي بالقاهـرة، «معجـم المؤلفيـن» (٦/ ٢١٨).

إبراهيم الدسوقيّ[1]: (إذا رأيتم شخصًا متربعًا في الهواء فلا تلتفتوا إليه إلّا إن رأيتموه مُقيَّدا بالكتاب، والسنة) انتهى[2].

وقال فيه أيضًا في ٢٤٠: (فإنّ من شأن أهل الطريق أن يكون جميعُ حركاتهم، وسكناتهم محرّرةً على الكتاب، والسنة، ولا يعلم إلّا بالتبحّر في علم الحديث، والفقه، والتفسير.

فقول الغزالي: (إنّ الاشتغال بالفقه بَطَالة) إنما هو كلام صدر عنه حالَ عشقه في طريق القوم، والعاشق حكمه حكم السَّكْرَان، ولو أنّه تأمّل في حاله لَعرف ما قلناه من أنّ الفقه أساسُ الطريق، وأنّ غاية الصوفيّ أنه عالم عمل بعلمه لا غير) انتهى[3].

لكن حاصل كلام الكُمَّل من الأولياء، - وكلامُهم كلُّه أدبٌ مع الله ذي الجلال، والكبرياء -: أن مدار الخلق، وسعادتَهم على عَفْوِ الله تعالى لا على العمل، فكل مَنْ سامحه الله تعالى، فهو النّاجي، وكل مَنْ أقام عليه المناقشة فهو الهالك.

وأما كلام غيرهم فمبنيٌّ على العمل (وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له)[4] من السعادة، والشقاوة فلا يقدر البتة على عمل غيره. ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩

---

(١) إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقي الصوفي (٠٠٠ - ٩١٩ هـ/ ٠٠٠ - ١٥١٤ م)، توفي في ٣ شعبان، له الحزب الكبير. «معجم المؤلفين» (١/ ٩٨).

(٢) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (١/ ٣٥٥).

(٣) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ٣٥٤).

(٤) «بَلْ فِيمَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، رقم ٩١، «سنن ابن ماجه».

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ⁽١٠⁾﴾[1] والوجه الجامع بين كلامي الكُمّل، وغيرهم يؤخذ من قول الشعراني - قدس سره - في «اليواقيت» في ٣٤٢: (فإن قيل فما الوجه الجامع بين قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، وبين قوله - ﷺ -: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ[3] اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[4] فالجواب[5] هذا من تعليق الأسباب

(١) الليل: ٥-١٠.

(٢) النحل: ٣٢.

(٣) وتغمده الله برحمته: غمّره بها. «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» (٢ / ٥١٧).

(٤) «موجبات الجنة» (ص ٢٠٦).

(٥) وفي الهامش: ثم رأيت في كتاب «تنوير الصدر على حزب البر» للعالم العارف الشيخ عمر الشيراويّ الشافعيّ مَذهبًا الخلوقيّ الأحمديّ الشاذليّ طريقةً في هامش مجموعة الأحزاب في ١٤٨ من الجلد الثاني في شرح قول المصنف، (وأدخلنا بفضلك في مَيادِين الرحمة) ما نصه قال الجيليّ في كتابه المسمى بـ«الإنسان الكامل» المراد جنة المواهب لا جنّةُ المجازاة فإنها بالأعمال الصالحة، قال تعالى في حقّ هذه الجنة، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ⁽٣٩⁾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ⁽٤٠⁾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ⁽٤١⁾﴾ ولا يدخل أحد هذه الجنة إلّا بالأعمال الصّالحة فمن لا عَمَلَ له لا يدخلها بخلاف جنة المواهب، لأنّ مواهبَ الله تعالى لا تتناهى فقد يَهب لمن لا عَمَلَ له ولا عقيدة أكثر ممن له أعمال كثيرة قال الشيخ المذكور ورأيت في هذه الجنة أقوامًا مِنْ كلّ ملة وطائفة من كل جنس من أجناس بني آدم لأنه تعالى منّ على أهلها باسم الوهّاب فلا يدخلها أحدٌ إلا بموهبة الله تعالى، وهذه الجنة هي سرّ قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وهي الجنة التي قال عليه الصلاة والسلام فيها « إِنَّهَا لَا يَدْخُلهَا أَحد بِعَمَله فَقَالُوا لَهُ وَلَا أَنْتَ يَا رَسُول الله فَقَال وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدنِي الله بِرَحْمَته ». انتهى. فعلم من هذا أنّ المراد بقول الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⁽٣٢⁾﴾ هو جنة المجازات، وأن المراد بقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة بعمله» هو جنة المواهب فانطبق كلام الله تعالى وحديثُ الرسول صلى الله عليه وسلم، الحقير المؤلّف حبيبُ الله رحمه الله.

لا دخول له فيها، ويسمى هذه بالجنة اليسرى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ⁽٨⁾﴾ إلخ وسببها دخولُها بقليل من الأعمال المقبولة فهي مُيسّرة لِمَنْ يَسّرها الله تعالى عليه. عبارة عبد الكريم الجيلاني في «الإنسان الكامل» في (٢/ ٣٤).

على مسبّباتها، ومعلوم أنّ الكلّ من الله تعالى، فمن نظر إلى توقف دخول الجنة على العمل قال: إنه دخل الجنة بعمله، ومن نظر إلى خالق السبب قال: إنه دخل الجنة بفضل الله، ورحمتِه)[1].

ويوافق قولَ الكمّل ما في «الأنوار القدسية» في ٢٢: (إذا علمت ذلك فالأدب أن لا تجيب في أمر الثواب، والعقاب بشيء؛ لإن ذلك جهل، وتحجر على الحق تعالى، فقد لا يثيت على الطاعة اللتي أفتى فيها بحصول الثواب، وقد لا يعاقب على المعصية اللتي أفتى فيها بوقوع العقاب.

والمراد من العلماء أن يبيِّنوا الأوامر، والنواهيَ، وأمرُ الثواب، والعقابِ إلى الله تعالى لا إليهم، فإن وردت السنة بحصول الثواب، والعقاب في فعل بخصوصه فلا بأس بذكره لمن يعمل طَلَبا للثواب، لأنه بحكم التبعية) اهـ. أوه ألف أوه[2] ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[3]، وبنفوذ قَدَره، وقديم حكمه راضون، فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة لنا، ولمشائخنا، وأساتيذنا، ولآبائنا، وأمّهاتنا، ولإخواننا، ومعارفنا، ولجميع الْمُوَحِّدِين، والمسلمين.

والموت اليوم تحفة لكل مسلم

والموتُ على درجةِ الإسلامِ، بلا زيادةٍ في هذهِ الأيَّامِ الإِنْقِلَابِيَّة أيّامِ ورود الفِتَنِ التي تكاد تصبُّ تلك الفتنُ فيها كمطرِ النَّيْسَانِ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائمِ، والماشِي فيها خيرٌ من السّاعِي، نعمةٌ كبرَى لا يعادلُها نعمةٌ

---

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ٤٩٣).

(٢) كلمَةٌ تقالُ عند الشِكايةِ أو التَّوَجُّعِ.

(٣) البقرة: ١٥٦.

أخرى كما قال الشعراني - قُدّس سره -: في «الطبقات» في (١/ ٢٠) عن عبدِ الله[1] بن مسعودٍ: (ذهبَ صفوُ الدنيا، وبقي كَدَرها، والموت اليومَ تُحْفَة لكلّ مسلم) انتهى[2].

وقال النبيّ - ﷺ - في مثل فِتَن هذه الأيّام: «إنَّ بينَ[3] يدَيِ السَّاعةِ فِتنًا كقِطَعِ[4] الليلِ المُظلمِ، يُصبحُ الرجلُ فيها مُؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مُؤمنًا

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل، الإمام الحبر فقيه الأمة أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري البدري حليف بني زهرة. كان من السابقين الأولين ومن النجباء العالمين شهد بدرا وهاجر الهجرتين وكان يوم اليرموك على النفل ومناقبه غزيرة روى علما كثيرا. حدث عنه أبو موسى، وأبو هريرة، وابن عباس. «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٨٠).

(٢) «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» (ص ٣٦).

(٣) وفي الهامش: وهذا الحديث استخرجه الإمام أحمد بن حنبل وأبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن أبي موسى - رضي الله عنهم - راجع رموز الأحاديث في أوله (منه).

(٤) وفي الهامش: قوله «فتنا كقطع الليل» يعني: ستأتي فتنٌ شديدة كالليل المظلم لا يعرفُ أحدٌ سببَهَا، ولا يُعْرَفُ طريقُ الخلاص منها، فتعجَّلوا بالأعمال الصالحة قبل مجيئها، فإنكم لا تطيقون الأعمال الصالحة إذا أتتكم الفتن.

«يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرا» يعني: يكفرُ كثيرٌ من المسلمين بالله في تلك الفتن، والفتن التي يكفر المسلم فيها تحتمل احتمالات:

أحدها: أن تكون بين طائفتين مسلمَتَيْن حربٌ، فتستحلُّ كلُّ واحدةٍ من الطائفتين مالَ الأخرى ودمَها بالتعصب والغضب، فيكفرون باستحلالهم أموالَ المسلمين ودمائَهم. والاحتمال الثاني: أن يغلب الكفارُ على بلاد المسلمين، ويكون ملوكُ بلادهم كفارًا، فيأمرون الرعيَّةَ بالارتداد عن الإسلام إلى الكفر، وربما يرتدُّ المسلمُ لطلبِ جَاهٍ ومَالٍ منهم من غير أن يطلبوا منه الكفر. والاحتمال الثالث: أن يكونَ ملوكُ بلاد المسلمين مسلمين، ولكن يغلبُ عليهم الظلمُ والفسقُ، فيريقونَ دماءَ المسلمين، ويأخذون أموالهم بغير حق، ويزنون، ويشربون الخمر، ويلبسون الحرير، ويعتقد بعضُ الناس أنهم على الحق، ويفتيهم بعض علماء السوء على جواز ما يفعلون من المحرمات، وربما يغضبُ الملكُ على أحد من الرعيَّةِ، ويأمر الناس بقتله، أو بأخذ ماله، فيعتقدُ بعض الناس كَوْنَ أمره حقًا، وربما يأمر بصلبِ السَّارق، فيعتقد الناسُ جوازَهُ، فيكفرون به، لأن حدَّ السَّارقِ القَطْعُ لا الصَّلب.

ويُصبحُ كافرًا، القاعِدُ فيها خيرٌ منَ القائِمِ، والماشي خيرٌ مِنَ السَّاعي، فكسِّرُوا فيها قِسِيَّكُمْ وقطِّعُوا فيها أوْتارَكُمْ واضرِبُوا سُيُوفَكُمْ بالحِجارَةِ والزَمُوا فيها أجْوافَ بُيوتِكُمْ، فإن دُخِلَ على أحدٍ منكمْ فليكُنْ كخَيْرِ ابنيْ آدمَ»(١).

وفي روايةٍ قالوا: فما تأمرنا؟ فقال: «كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ»(٢). وفي روايةٍ: «وَالزَمُوا فِيهَا أَجْوَافَ بُيُوتِكُمْ»(٣) انتهى.

روى هذا الحديث أبو هريرة. وإنما كان القاعد فيها خيرًا من القائم؛ لأن القائمَ أقربُ إلى تلك الفتن من القاعد؛ لأنه يرى ويسمع، ما لا يراه ويسمعه القاعد، وكذلك القائم بمكانه خيرٌ من الماشي إلى الفتن.

يعني الخلاص في التباعد منها والهلاك في مقاربتها. روى هذا الحديث أبو هريرة. وإنما أمر النبي ﷺ بكسر السلاح لأن تلك الفتن تكون بالحرب بين المسلمين فلا يجوز الدخول في تلك الحرب. مُظْهِر «شرح المصابيح» ع. اختصارًا على المراد راجعه.

قوله «العبادة في الهرج كهجرة إليّ» يعني ثواب عبادة في زمان الفتن والمحاربة بين المسلمين كثواب هجرة من مكة إلى المدينة في زمانه ﷺ قبل فتحها. روى هذا الحديث معقل بن يسار. مُظهر الدين «شرح المصابيح».

ومن هذا الحديث الصحيح وأمثاله، كان شيخُنا المربّي الحقيّ حسن حِلْمي القحي -قُدّس سره ومُتِع ببقائه- قاعدا في زاوية داره وجوف بيوته ومانعًا لمن اقتداه من الدخول في حرب هذا الزمان الواقع بين فئتي المسلمين في ولاية الداغستان سنة ١٣٣٩ ،وإن شنع عليه وطعن فيه من تصنع وتشيخ واقتفى بهواه لا بالكتاب والسنة فسَلِم هو بالله سبحانه وتعالى من شُومِ تلك الفتن من الجهتين، وكذا أسلم من امتثل به واقتدى برأيه، وهلك جميع المتشيخين والمتصنعين الداخلين فيه بلا بقآء أحدٍ منهم بسببه قال تعالى: ﴿ تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ وقال ﷺ: «الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللهُ مَنْ أَيْقَظَهَا» أخرجه الرافعيّ عن أنس رضي الله عنهما هذا والسلام على من اتبع الهدى، (منه رحمه الله).

(١) «سنن أبي داود» (٤٢٥٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٢٦٢).

(٣) «سنن الترمذي» (٢٢٠٤).

ومعلومٌ أنّ هؤلاء البَلْشُوكِين[1] ماذا فعلوا على المسلمين القائمين غيرِ القاعدين من الجَوْرِ، والجفاء في هذه[2] الأيّام، وماذا صنعوا في بلاد الإسلام على محرّكي الفتن من الإهانَة والْخِذْلَان، وأية إهانة أصابتهم منه - خذَلَهم الله سبحانه -، ومثلُ هذا الوَرْدِ كريهِ الرّائحة يُفَتَّقُ[3] كثيرًا بمقتضى آخر الزمان -ثبتنا الله سبحانه، وجميع المؤمنين على متابعة سيد المرسلين - عليه وعليهم الصلاة والسلام -، ولْنَرْجِعْ إلى المقصود.

وبالجملة لو قُبِلَ من الخلق الحجةُ بإرادة الله تعالى، ومَشِيئَتِه - سبحان - لتساوت الأديان كلُّها، ومن اعتقد التساويَ فقد كفر بالإجماع، ومن ادّعى أنَّ له إرادةً، واختيارًا مع الله تعالى حقيقةً فهو مُشرِكٌ مُدَّعٍ للرّبوبيَّة بلسان حاله، وإن تَبَرَّأَ منه بمقاله، لسانُ الحال أنطقُ من لسان المقال، ولا ينبغي أن يكون للعبد ما لله تعالى فأين الحق، وأين الخلق ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ ﴾[4]، قال العارف الشعراني - قُدّس سره - في «الطبقات»[5] في ١٤٢: (إن الله تعالى يقول: يا عَبْدي افعل فإنك عبد مأجور، ولا تشهد الفعلَ لك فإنّ الفعل لي، وأنت مُحْدَثٌ مُتردِّد بين العدم والوجود، وأنا الفَعّال لما أُريد

---

(١) التي تعني الكثرة أو الأكثرية وقد أطلقت جماعة الجناح اليساري من أنصار لينين في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي هذا التعبير على نفسها عام ١٩٠٣، وكانوا يشكلون الأكثرية في الحزب، بينما سمي البقية بالمونشفيك (أي الأقلية)، وكانت الأكثرية تسعى للحل الثوري بينما الأقلية تسعى للتغيير السلمي.

(٢) وفي المخطوطة: «هذا».

(٣) فتق: الفَتْق: خِلافَ الرتق. فَتَقَهُ يَفْتُقُه ويَفْتِقُه فَتْقًا: شقه. «لسان العرب» (١٠ / ٢٩٦).

(٤) النحل: ١٧.

(٥) وفي الهامش: في ترجمة علي الخوّاص حكاية عنه في الجلد الثاني. (منه).

بفعلك لي، وفعلُك لك لأنّي غنيّ عنك، وعن فعلي فيك، ولك، وبك، فإن شهدتَ الفعلَ لك فأنت مُشرِك، وإن لم تفعل فأنت كافر فاحذَرْني، وافعل كلّ ما أمرتُك، ولا تَنسِب لنفسك قولًا، ولا فعلًا، وأنا الخلّاق العليم)انتهى.[1]

العبد تحت تصاريف الأقدار

فلاح من هنا أن العبد تحت تصاريف[2] الأقدار ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[3] ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[4] ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[5] ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ

---

(١) «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» (ص ٥٠٩).

(٢) وفي الهامش: قال الشيخ النابلسي في شرحه لرسالة الشيخ أرسلان شعرا:

رب شخص تقوده الأقدار * للمعالي وما لذاك اختيار * رب غافل والسعادة احتضنته وهو منها مستوحش نفار * يتعاطى القبيح عمدا فيلقا * جميلا وفلسه دينار كلما قارن الذنوب أتته * توبة طهرته واستغفار * وعليه إن زل عين من الله تقيه ويستر الستار * فهو بالله دائما يرقى * لا به حيث تشرق الأنوار وفتى كابد العبادة حتى * منه قد مل ليله والنهار * يتسامى بالذكر والفكر قصدا وهو ناء وعنه شط المذام * يفعل الخير ثم يلقاه شرا * وإذا رام جنة فهي نار حكم حارت البرية فيها * وحقيق بأنها تختار * وعطايا من المهيمن دلت

أنه الله فاعل مختار. «تنوير الصدر» في ١٠٦ جلد أول من مجموعة الأحزاب.

(٣) الأحزاب: ٣٨.

(٤) فاطر: ٤٣.

(٥) الأنبياء: ٢٣.

وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[1] ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، أي: لنأمرهم بالعبادة كما فسر به في «التقريب»[3] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[4]، أي: أمر أن لا تعبدوا إلا إيّاه كما فسّر به في كتاب «الملل والنحل»[5] ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[6] أي: الموت كما فسّره المفسّرون.

فالمقصود من خلق الإنسان

فالمقصود من خلق الإنسان الذي أفضل الموجودات ليس هو اللّهو، واللّغو، ولا الأكل، والنوم بَلْ أَدَاءُ وَظَائِف العُبُودِيَّة كما ينبغي إجلالًا لله تعالى، وإظهارًا لكماله تعالى، وامتثالًا بالأمر الظاهر بلا تدقيق المقال، ولا ترقيق الكلام فوق الإجمال في هذا المقام كما قيل: «كل تفصيل في الأسرار إجمال، وكل إجمال فيها تفصيل» نظير قولهم: «العجز عن دَرَكِ الإدراك إدراك».

حل هذه المسألة على جهة الكمال متعذر لأمثالنا

وحلّ هذه المسألة على جهة الكمال متعذِّرٌ لأمثالنا أهلِ الظاهر، وقد كان ما قضى الله تعالى به واجبَ الحصول بعد سَبْقِ المشيئة من الله تعالى

---

(١) البينة: ٥.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) «تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول» (ص ٦).

(٤) الإسراء: ٢٣.

(٥) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٣ / ٣١).

(٦) الحجر: ٩٩.

بل كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ، وحصوله، بقدر معلومٍ مُنتظَرٌ[1]. فليس لنا إلا مَدُّ العُنُقِ، وتغميض العين، وخضوعُ القلب تحت سلطان الألُوهيّة والجلال، سبحانك اللهم لا ملجأ، ولا منجا منك إلا إليك آمنّا بكتابك الذي أنزلتَ، وبنبيّك الذي أرسلتَ.

والآن ننقل هنا أقوالَ الأئمة العظام، وآراءَ ساداتنا الفِحام.

سِرّ القدر والمشيئة لا يفهمه إلا أهل الكشف

فعبارة شيخنا الْمُرْشِدِ الْحَقِيِّ حَسَن حِلْمِيّ القَحِيّ[2] - قُدِّسَ سِرُّه العزيز-: (وسرّ القدر، والمشيئة مما لا يفهمه إلّا أهلُ الكشف بل هو مَوقِف العلماء العارفين من أهل الكشف والْمُشَاهَدَة، وإنّهم وإن أدركوا الحقيقة لم يُطِيقُوا أن يُصَرِّحُوا بلفظٍ وعبارةٍ، وقد كشف لهذا الحقير - رحم الله إِفْلَاسَه آمين - في وقت السَّحَر عن سِرِّ القَدَر بحيث لم يَبْقَ له الإشكالُ بَيْدَ أنّه لم

(١) «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» (١٢/ ٩٤).

(٢) حسن بن محمد حاج (١٣٥٥ - ١٢٦٨هـ/ ١٩٣٧ - ١٨٥٢م)، ولد في قرية «قَحِبْ» من قضاء شمويل في جبال داغستان، والده: العالم الجليل الفاضل الحاج محمد القحيّ الهدليّ، كان رجلا فاضلا، وعالما تقيا عاملا، توفي حاجا إلى بيته الحرام، ودفن هناك في جوار أمِّنا حواء، فبقي نزيل الحرم إلى أن يبعث آمنا يوم القيامة. لم يكن حسن حلميّ خافيًا أنّ علمه وتعلّمه كان فتحًا من الله تعالى، على الرَّغم من الأسباب التي بذلها لتحصيل العلم، والاجتهاد في تتبعه، فقد قسم ليله ونهاره بين تحصيل معاشه وتعمير معاده، وكان يقصد الدرسَ باكرا، ومن أساتذه: عبد الرحمن العسويّ، ومن مصنّفاته: «تنبيه السالكين إلى غرور المتشيخين» باللغة العربية والعَجَميّة ومنظومًا، و«تلخيص المعارف في ترغيب محمد عارف»، «السفر الأسنى في الرابطة الحسنى»، «البروج المشيدة بالنصوص المؤيدة» وغيرها. (ص ٧-٤).

يَقْدِر أن يُبيِّنَه بالقول والعبارة، فبقي في حِيرَةٍ من ذلك، ثم بعد ذلك رأى في كتاب من كتب الشعراني أنّ الشيخ الأكبر مُحْيِيَ الدين العربيَّ (١) - قدس سره - قال: (إنّه لم يقدر أن يبيّنه بلغة من اللّغات وإن كان قد كُشِفَ له سرُّه بلا خَفاءٍ)(٢) اهـ.، أو ما هذا معناه، فينبغي أن يُعْلَمَ أنّ قول الله تعالى: وَمَا ﴿ خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٣) هو مبنيٌّ على الحكمة الإلهيّة، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾(٤) هو الواقع؛ لأن خطاب المشيئة لا يتأتى انتفاؤه، وأما خطاب الحكمة يمكن انتفائه في بعض الموجودات؛ لأنّ أمر الله تعالى مَسُوق إلى المشيئة لا إلى الحكمة، والحكمةُ سِجَاف(٥) على المشيئة، قال صاحب الحكم(٦) - ﷺ -: (إلى المشيئة يَسْتَنِدُ كلُّ شيء، ولا يستند هي لشيء) يعني: لا يقال: (لِمَ شاء هذا، ولِمَ يعمل هذا)، فلا علة لاختياره، ومشيئته - ﷻ - وكلُّ الكَوْنِ بَارِزٌ عن المشيئة، فما شَذَّ شَيْءٌ - قَلَّ أو جَلَّ - عن المشيئة الإلهيّة(٧) كما

---

(١) محمد بن علي بن محمد (٥٦٠-٦٣٨م/ ١١٦٦- ١٢٤٠هـ)، المعروف بالشيخ محي الدين ابن العربي، شيخٌ جليل الشأن، وباهر البُرْهَان. له مصنفات كَثِيرَة؛ مِنْهَا: «الفتوحات المكية» وَ تَفْسِير الْقُرْآن الْعَظِيم، الْمُسَمّى بـ«الإجمال وَالتَّفْصِيل» وَ «كتاب الفصوص»، وَدفن فِي تربة بني الركي فِي محلّة الصالحية. «طبقات المفسرين» (ص ٢٣٠).

(٢) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١٩٨).

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) هود: ١١٨-١١٩.

(٥) سجف: الستر. «لسان العرب» (٩/ ١٤٤).

(٦) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري المالكي الشّاذلي، (٠٠٠ - ٧٠٩هـ/ ٠٠٠ - ١٣٠٩م). «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (٨/ ٣٦)، و «الأعلام» (١/ ٢٢١)، و«معجم المؤلفين» (٢/ ١٢١).

(٧) «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني» (ص ١٤٦).

هو مبسوط في «جواهر المعاني» فينبغي للعبد أن يقفَ على بساط العبودية، وباستقصاء أمورِ المشيئة، وسرّ القدر يخاف على العبد من وقوع التزلزل في اعتقاده كما قال بعض الأئمة ما معناه: لأنْ ألقى الله تعالى بأكبر الكبائر أحبّ من أن ألقاه بالتوغّل في دقائق الكلام أو ما هذا معناه وما له، والسلام من الحقير المقصِّر انتهى منْ خطّه.

قال في «جواهر المعاني» في (١/ ٦٣): (وهذه العلوم الباطنة الحقيقيّة المُستمِدّة من الأنوار الإلهيّة معادنُ الأسرار، ومطالعُ الأنوار، ولهذا لا يمكن التّعبير عنها، ولا يَعْرِفُ حَلاوتَها إلا مَنْ اتَّصَفَ بها، وذاقَها) انتهى[١].

خطاب الله على قسمين

وقال فيها في (٢/ ١٧٠): (وخطاب الله تعالى على قسمين: خطابٍ في عالَم الحِكمة، وخطابٍ في عَالَمِ المشيئة، وكلا الخِطَابَيْن صحيحٌ ثابتٌ يجبُ اعتقاده، والإيمان به.

فخطابه في عالم الحكمة قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] أي: لِأُوجِبَ عبادتي فإنْ وَفَوْا بها أَثَبْتُهم، وإن خالَفُوا اِسْتَحَقُّوا[٣] هُمْ العقوبةَ منّي.

---

(١) «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني» (ص ٦٨).
(٢) الذاريات: ٥٦.
(٣) وفي الهامش: «استحقه أي: استوجبه».

والخطاب في عالم المشيئة قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...﴾ إلى قوله: ﴿خَلَقَهُمْ﴾[1].

ومن الخطابِ في عالم الحِكمة قوله - تعالى -: ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ﴾[2].

والخطاب في المشيئة قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ...﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3].

ففي الآية الأولى قولُه: ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾[4] إلخ أثبت الإيمان مملوكًا للعباد، وفي الآية الثانية جرَّدهم عن الإيمان، وأنه لا يكون إلا بمشيئته) انتهى ع[5].

وعبارته أيضا فيها في ١٤٧: (وقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ﴾[6] وذلك خطاب في عالَم الحكمة؛ فلذلك وقع فيه التخلّف، وكَفَرَ كثيرٌ من الخلق بالرُّسُل له، ولو كانتْ طاعةُ الخلق مُقَرَّرَةً في المشيئة ما أمكن أن يَعْصِيَ الرُّسُلَ أحدٌ، ولا أن يتخلّف عنهم، قال - ﷻ - لأكبر رسله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[7] فبيّن

---

(١) هود: ١١٩.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) الأنعام: ١١١.

(٤) النساء: ٦٤.

(٥) «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني» (ص ٣٧٦).

(٦) النساء: ٦٤.

(٧) القصص: ٥٦.

بهذا أنَ هِدَاية جميع الخلق للرّسل ليست مُقَرَّرَةً في المشيئة؛ إذ لو كانتْ في المشيئة لما وقع العصيانُ مِن أحدٍ للرّسل إلى آخر الكلام) انتهى[1].

وقال السَّيِّدُ عُمر بن سعيد الفَوْتِيُّ الطُّورِيُّ الكَدَوِيُّ[2] في «رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم» ما عبارته: (وبذلك يتحقّق قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [3] فتعالى الله أن يخلقها لعبادته فتتخلّف، ولكن طرأ[4] على أرواح الْمُكَلَّفِين، وأجسامهم حُكْمُ القَبْضَتَيْن في الأزل حيث قال في قبضة: هؤلاء إلى الجنة، ولا أبالي، وفي قبضة: هؤلاء إلى النار، ولا أبالي، وطرأ عليها حكم قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[5]، ولا مُعارِض لله تعالى، ولا مُنازِع له في مُرَادِه في كل ما أراد بخلقه.

وهذا موقف أصحاب الكشف بالغيب والعلماء بالله تعالى، ولا يستنكف[6] عن هذا العلم، ولا يُنكره إلا ظَاهِرِيٌّ جامدٌ على ظاهره في حجاب، وسِجن لا يعبأ بقولهم، ولا بإنكارهم). انتهى[7].

---

(١) «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني» (ص ١٤٦).

(٢) ابو حفص عمر بن سعيد الفوتي، (٠٠٠ - ١٢١٣هـ/ ٠٠٠ - ١٧٩٦ م)، «رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم» (١/ ٤-١).

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) في الأصل: «طرئ».

(٥) هود: ١١٨-١١٩.

(٦) استنكَفَ من الشَّيْء وَعنهُ أنف وَامْتنع وَيُقَال استنكف عَن الْعَمَل امْتنع مستكبرا وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾. «المعجم الوسيط» (٢ / ٩٥٣).

(٧) «الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة» (٣ / ٢٩١).

قال السيّد علي حرازم بن العربي برادة المغربي الفاسيّ[1] في «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس التجاني»[2] (في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا﴾[3] الآية: نفى الله العلمَ بالغيب عن الخلق بهذه الآية فلا يعلمها أحدٌ سواه، لكنَّ العلمَ المنفيَّ ما كان للخلق إليه طريقٌ، وطرُقُ[4] العلم إلى الخلق من ثلاث: إما بحاسة من الحواس، وإما بطريق السمع، وتبليغ الخبر، وإما بطريق الفِكر، وهو النَظَر في أمورٍ معلومة يُتوصَّل بالنظر فيها إلى العلم بأمور مجهولة، فهذه الطُرُق هي المنفية عن الخلق، وبقيت الطريق الرابع، وهي ما يقذفه[5] الله في قلب العبد بغير حاسة، ولا واسطة، ولا فكر، ويسمى هذا بالعلم اللَّدُنِيِّ، فإنّ هذا العلمَ غيرُ منفيّ على الرسول، ولا على غيره من النبيّين والمرسلين، يشهد بهذا قوله - ﷻ -: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[6] الآية. قال المرسي[7]: (أو صديقٍ

---

(١) وفي الأصل: «بزاده». علي حرازم بن العربي برادة المغربي، (٠٠٠ - ١٢١٤ هـ/ ٠٠٠ - ١٧٩٩ م)، من تصانيفه: «جواهر المعاني في فيض سيّدي أبي العباس التيجاني»، و«الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية من فيض الحضرة الأحمدية التيجانية». «الأعلام» (٤ / ٢٧٠).

(٢) أحمد بن محمد فتحا بن المختار التجاني، المغربي أبو العباس (١١٥٠ - ١٢٣٠هـ / ١٧٣٧ - ١٨١٥ م)، «الأعلام» (١ / ٢٤٥).

(٣) الأنعام: ٥٩.

(٤) وفي الهامش: طرق العلم إلى الخلق ثلث وها هي المنفية في قوله تعالى (وعنده إلخ) وأما الطريق الرابع الذي يقذفه الله في فقير منفية على إلخ.

(٥) وفي الهامش: فوق كلمة «يقذفه» كتب «علم اللدني»

(٦) الجن: ٢٦.

(٧) أحمد بن عمر المرسي، أبو العباس، شهاب الدين، (٦٨٦ - ٠٠٠هـ/ ٠٠٠ - ١٢٨٧ م)، فقيه، متصوف، من أهل الإسكندرية، لأهلها فيه اعتقاد كبير، إلى اليوم. «الأعلام» (١/ ١٨٦).

أو ولي) يشهد لهذا قوله - ﷺ -: «إِنْ مِنَ الْعِلْم كَهَيْئَة الْمَخْزُون لَا يَعْلَمهُ إِلَّا الْعُلَمَاء بالله فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَا يُنْكِرهُ إِلَّا أَهْل الْغِرَّة[1] بالله »[2] إلخ انتهى فراجعه[3].

قال الشعرانيّ - قدس سره - عن الشيخ محي الدين العربيّ - ﷺ - في «اليواقيت» في ٨٢: (أنّ سرّ القدر لا يطّلع عليه إلّا الأفراد وقد أطْلَعَنا اللهُ عليه، ولكن لا يَسَعُنا الإفصاحُ عنه؛ لِغَايَة مُنَازَعَةِ الْمَحْجُوبِين فيه، قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[4] فإنّ الله تعالى قد طوى سرّ القدر عن سائر الخلق ما عدا محمدًا رسول الله - ﷺ - ومَنْ وَرِث منه)إلى آخر كلامه انتهى ع[5].

وعبارة «تفجير التسنيم»: (القدر سرّ الله في خلقه لم يَطّلِع عليه مَلَكٌ ولا نبيٌّ مرسَل استأثره الله تعالى بعلمه، فالتعمق فيه ذريعة الحق؛ لأن كما قيل: التقدير بحر عميق مَن انغمس فيه ضل لأنه مُؤَدٍّ إلى المنازعة في أحكام الله تعالى، وهو: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[6]) انتهى. في ٧٠.

وعبارة «الإحياء» في (٤/ ١١٥): (فهذا المثال يُفْهِمُك حاصلَ المعنى، وإن كان لا يقف بك على سببه، فإنّ الوقوف على سببه، وقوفٌ على سرّ القدر،

---

(١) أي: أهل الغفلة بالله.

(٢) «الفردوس بمأثور الخطاب» (١ / ٢١٠).

(٣) «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس التجاني» (ص ١٦٦).

(٤) البقرة: ٢٥٥.

(٥) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١٢١).

(٦) الأنبياء: ٢٣.

ولا يكشف ذلك إلا لأهله) انتهى[1]. وراجع إليه في ٢٥٣. قوله: (إلا لأهله) أي ممن له علم بالأسرار المَخْفِيَة ممن كوشف بها.) «إتحاف»[2].

التنازع في القدر

قال صاحب المظهر شرح المصابيح: (والتنازع في القدر أن يقول أحد: إذا كان جميعُ ما يجري في العالم بقدر الله فلِمَ يُعَذَّبُ المعذّبون؟ ولِمَ يُنْسَبُ الفعل إلى العباد، وإلى الشيطان؟ فقال: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[3]، وقال ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾[4]) وغيرُ ذلك، وأن يقول آخر: (فما الحكمة في تقدير بعض العبادِ للجنّة، وبعضهم للنّار) وما أشبه ذلك فغَضِبَ رسول الله - ﷺ - حتى احمرَّ وجهُه من الغضب، ولم يرض التنازع في القدر؛ لأن القدر سرّ من أسرار الله، وطلبُ سرّ الله منهيٌّ عنه، ولذلك مَنْ بَحَث في القدر لم يَأْمَنْ أن يصير جبريًا[5] أو قَدَرِيًا، بل العباد مأمورون بقبول أوامر الشرع من غير أن يَطْلُبُوا سرّ ما لا يجوز طلبه) انتهى[6]، وأيضا قال فيه: (فإن قيل: إذا كان للعباد اختيار في أفعالهم، واختيارُهم في مشيئة الله تعالى:

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤ / ١٥٩).

(٢) «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» (١١ / ٤٠٤).

(٣) النور: ٢١.

(٤) طه: ١٢٠.

(٥) الجبرُ هو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب تعالى، والجَبرية أصناف. فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا، والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غيرَ مؤثّرة أصلا، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل، وسمّى ذلك كسبا، فليس بجبري. «الملل والنحل» (١ / ٨٥).

(٦) «المفاتيح في شرح المصابيح» (١ / ٢٠٥).

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] فلو لم يشاء الله للعبد اختيارَ الخير فكيف يفعل الخير؟ وكذلك لو لم يشاء الله للعبد اختيارَ الشرّ فكيف يفعل الشرّ؟

قلنا: حاصلُ هذا: أنّ القَدَرَ سرُّ اللهِ تعالى لا يطّلعُ عليه نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولو أدخلَ اللهُ جميعَ الصالحينَ النارَ - مع كثرةِ صلاحِهم - لم يكنْ منه ظلمٌ؛ لأنّ الظلمَ التَّصَرُّفُ في مِلْكِ الغير بغيرِ إذنِه، وجميعُ المخلوقاتِ مُلْكُه فكيف التَّصَرُّفُ فيه يكون ظلماً؟ فإذا كان كذلك، فلو شاء لأحد فعلَ الخير يكون منه ذلك فضلًا، ولو شاء لأحدٍ فعلَ الشرّ يكون ذلك منه عدلًا، ولا اعتراض لأحد عليه؛ لأنه مالك، ونحن مَمْلُوكُون، واعتراضُ المملوك على المالك قَبِيحٌ مُوجِبٌ للتّعذيب، قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[2]) اهـ[3].

وعبارة العلامة سليمان الجمل[4] على «الجلالين»: (والجواب الشافي عن هذا كلّه أنّ الله تعالى مُتَصَرِّفٌ في خَلقه، وهو المالك الْمُطْلَق

(١) التكوير: ٢٩.
(٢) الأنبياء: ٢٣.
(٣) «المفاتيح في شرح المصابيح» (١/ ١٨٠).
(٤) سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل: فاضل من أهل منية عجيل (إحدى قرى الغربية بمصر) انتقل إلى القاهرة. له مؤلفات، منها «الفتوحات الإلهية - ط» أربع مجلدات، حاشية على تفسير الجلالين، و «المواهب المحمدية بشرح لشمائل الترمذية - خ» و «فتوحات الوهاب - ط» حاشية على شرح المنهج، في فقه الشافعية، «الأعلام» (٣ / ١٣١).

﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1]، و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[2] ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[3]) انتهى ع. في (٢/ ٤١٦)[4].

وعبارة الإمام الرباني - قدس سره - في «المكتوبات» في ٢٦٩: (أو نقول: إنّ الله تعالى مالك على الإطلاق، والعباد كلُّهم مماليكه سبحانه فكل حُكْم، وتصرّف يُجرِيه عليهم فهو عينُ الخير والصّلاح لهم، وهو مُنَزَّهٌ، ومُبَرَّأٌ عن شائبة الظّلم، والفساد في ذلك ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[5] شعر:

من ذا الذي في فعله يتكلم * دون الرضا يا صاح والتسليم.

جميع تصرفات الخلق في أملاكهم عين الظّلم

فإن أدخل الجميعَ إلى النار، وعَذَّبَهُمْ بالعذاب الأَبَدِيِّ فليس ذلك منه بِمَحَلٍّ للاعتراض، وليس تصرفًا في مِلك الغير حتى تكون فيه شائبة الجَوْر بخلاف تصرّفنا في أملاكنا التي كلّها أملاكُه تعالى في الحقيقة، وجميع التصرّفات منّا فيها عينُ الظلم، فإنّ صاحب الشرع إنما ينسب هذا الإملاك إلينا بسبب بعض المصالح، وإلّا فهي في الحقيقة أملاكه، فجوازُ تصرّفنا فيها مقصورٌ على القَدْر الذي جوّزه لنا المالك على الإطلاق، وأباحه) اهـ[6].

---

(١) آل عمران: ٤٠.

(٢) المائدة: ١.

(٣) الأنبياء: ٢٣.

(٤) «لباب التأويل في معاني التنزيل» (٢ / ٤٨٦).

(٥) الأنبياء: ٢٣.

(٦) «المكتوبات الربانية» (٢ / ٦٣).

وقال الشيخ الشعراني - قدس سره - في «اليواقيت» في ٨٥: (فعلم استحالة وصفه تعالى بالظلم، ولو وقع منه تعذيبٌ أو إيلامٌ لأحدٍ من خلقه مُكَلَّفٍ أو غيره، لأنه مالك الأمور كلِّها على الإطلاق) انتهى[١].

ولا يقال على هذا الجواب بأنّ تعذيبَ المملوك ذي الإحسان على ما أحسن عليه مِنْ فَعْلِه مُرادَ سيّده ظلمٌ أي: صفةُ نقصٍ في حقّه تعالى، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك؛ لأنّا نقول بأنّه يُمنع كون ذلك صفةَ نقصٍ في حقه تعالى، وإن كان صفة نقص في حقِّنا، ولا جامع بين فعل الخالق، وفعل المخلوق كما لا يخفى، فلا قياس بينهما على أنّ العقل لا يُحَسِّن شيئًا ولا يُقَبِّحُه بل الشرع يُحَسِّنُه، ويُقَبِّحُه. وليس للعقل مَدْخَلٌ في الشرع إلّا في التوحيد فأين العقل؟ وأين الشرع؟ بل ليس لنا إلّا الْمُوَافَقَةُ، والإيمانُ بكل ما أتى به الشارع، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢] ولإنْ سُلِّم فإنّما يكون ظلمًا إذا كان السيد قد أمره بذلك المراد ففعله، وعاقبه على ذلك.

فإنّ على العبد امتثالَ أمر سيّده

وأما إذا أمره بشيء ففعل غيرَ ما أمر به فليس ذلك بظلم، فإنّ على العبد امتثالَ أمر سيّده بلا الْتِفَات إلى أنه مراده أو لا، مع أنّ الإرادة أمرٌ غائبٌ عن العبد لا يُعْرَفُ أنّه المأمور به أو غيره فلم يبق من العبد للعقاب عليه إلّا المخالفةُ لأمره فعاد الظلم إلى عقابه على فعل ما أمره لا على ما

---

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١٢٥).

(٢) يونس: ٤٤.

أراده السيد، والحسن إلى عقابه على مخالفة أمره على أنّ الأمر لا يوجب الإرادة[1] كيف إنّ إبليس أمره بالسجود لآدم - عليه السلام - ولم يُرده منه، ونهى آدمَ عن أكل الشجرة، ولم يُرد منه الامتناعَ من الأكل، فعُلم مما سبق أنّ هذه المسألة من سرّ القدر الذي لا يُدْرِكُه إلّا أهلُ الكشف، ولا يُتَرَخَّصُ في طلب إدراكها، وإفشائها إلّا لأهله، فالسكوتُ عن السؤال عنها، وعن البحث فيها هو الجوابُ الشافي لها، وأنّ العبد تحت إرادة الله السابقة في علمه الأزلي فلا يقوم على المخالفة له تعالى فيما أراده منه، وحينئذ فالثواب بمحض فضله تعالى، والعقاب بمحض عدله تعالى، لا يُسئل ربُّنا عما يَفعل، ونحن مسؤلون بنص آية ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[2] «وكُلُّ عَبْدٍ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» فلا يقدر على عَمَلِ غيرِه البَتَّةَ بمنطوق آيةِ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾[3] إلخ. فالأفعال الاختيارية أَمَارَةٌ شرعيّة على الثّواب والعقاب، يخلقُها الله تعالى في عبده على ما أراده له في الآخرة.

فائدة التكليف

ثم إنّ فائدة التكليف، والبعثة، والإنزال فأقول: وإن قلت: فِيَّ البضاعةُ ووُجِد عندي عدمُ الحوصلة، والله تعالى أعلم، وعلمه أتم، وأحكم، إنه قال الإمام الرباني - قدس سره - بعد كلام مبسوط في «المكتوبات» في ٢٦٩: (واتّضح من هذا التحقيق أنّ التّكاليف الشرعيّة الثابتة من طريق البعثة

(١) وفي الهامش: الأمر لا يوجب الإرادة.

(٢) الأنبياء: ٢٣.

(٣) الليل: ٥.

أيضًا رحمة[1] لا كما زعمه الْمُنْكِرون عليها من الْمَلاَحِدَة، والزَّنَادِقَة من اعْتِقَادِها كُلْفَةً وغيرَ معقولةٍ حتى قالوا: (أيّ شفقة في تكليف العباد بأمور شاقّة) ثم يقال لهم: مَنْ عمل بِمُقْتَضَى هذا التَّكْلِيف يدخل الجنة، ومن ارتكب خلافَه يدخل النارَ، كيف لا يُكَلَّفُون؟ بل يُتْرَكُونَ يَأْكُلُونَ، ويَنَامُونَ، ويمشون على طَوْرِ[2] عُقُولهم، ومقتضى طبائعهم، أَمَا يَعْلَمُ هؤلاء الخُبَثَاء الخائبونَ، أنّ شكر الْمُنْعِم واجبٌ عقلًا؟ وهذه التكليفات بيانُ كيفية أداء ذلك الشّكر، فيكون التكليف واجبًا بالعقل.

نظام العالم منوط بالتكليف

وأيضًا إنّ نظام هذا العَالَم وانتظامَ أمره منوط بهذا التكليف فإنّه إذا تُرِكَ كل واحد على طَوْرِه وخُلِّيَ على طبعه لا يظهر فيه غيرُ الشَّرِّ، والفساد، ويعتدي كل مَهُوس[3] على نفس الآخر، ومَالِه، ويتغلّب عليه بالخُبْثِ، والفساد فيُضَيِّع نفسَه عند عدم الزّواجر الشرعية، وموانِعها،

---

(١) وفي الهامش: فإذا علمتَ هذا علمت أنه ﷺ عين الرحمة الربانية؛ لأنه رحم جميع الوجود بوجوده ﷺ، ومن فيض وجوده أيضا رحم جميع الوجود فلذا قيل فيه إنه عين الرحمة الربانية ﷺ وعلى هذا إن جميع الوجود كلّه نشأ عن الرحمة الربانية وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ؛ لأنه أصيله ﷺ رحمة، ولا يلزم من شُمُول الرحمة عدم وقوع العذاب والوعيد والغضب؛ لأن تلك من مقتضيات الكمالات الإلهية، فإنّ الكريم وإن عظُم كرمُه لولا بطشه وغضبه وعذابه ما ضيق جانبه ولو أمن منه هذا الحال احتقر جانبه وليست هذه صفة الكرم إلخ «جواهر المعاني» في (ص ٢٤٥).

(٢) «الطور»: الحال، وجمعه أطوار. «لسان العرب» (٤/ ٥٠٧).

(٣) وفي الهامش: «هوس»: طرف من الجنون.

ويُضيّع غيرَه عِياذًا بالله - تعالى - ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.[1]

شعر:

لولا الأمير الذي تخشى بوارده[2] * لقَائَت الزِّنْجُ[3] بَحْبُوحَةَ الحَرَمِ)

انتهى[4].

وقال أيضا فيها: (وبعثة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - رحمةٌ للعالمين فلو لم تكن وَسَاطَةُ هؤلاء الكبراء مَنْ كان يدلّنا على معرفة ذات واجب الوجود، وصفاته؟ ومَن كان يميز لنا مَرْضِيَّات مولانا - جلّ شأنه - عن غيرِ مرضياته؟ فإنّ عقولنا الناقصة بمَعْزِلٍ عن هذا المعنى بدون تَأْييد نور دعوتهم، وأفهامُنا القاصرة مَخْبُولَةٌ[5] في هذه المعاملة من غير تقليد هؤلاء الأكابر.

العقل حجة غير تام

نعم إنّ العقل، وإن كان حجة، ولكنه غيرُ تامّة في الحُجّيّة، وغيرُ بالغ مرتبة البلوغ، والحجةُ البالغة إنّما هي بعثة الأنبياء - عليهم السلام -، والعذابُ، والثوابُ الأُخْرَوِيَّان مَنوطان بها.) انتهى[6].

---

(١) البقرة: ١٧٩.

(٢) وفي الهامش: «السيوف».

(٣) وفي الهامش: «جيل من السودان مخ».

(٤) «المكتوبات الربانية» (٢ / ٦٢-٦٣).

(٥) والخَبْل والخُبْل والخَبَل والخَبَال: الْجُنُونُ. «لسان العرب» (١١/ ١٩٨).

(٦) «المكتوبات الربانية» (٢/ ٦١).

فوائد البعثة

وقال أيضا فيها في (والذي ميز الحق عن الباطل هو البعثة، والذي فرق بين المستحق للعبادة، وبين غير المستحق لها هو البعثة، وبواسطتها يُدْعَى العبادُ إلى طريق الحق - جل وعلا -، وبها يَصِلون إلى سعادة قرب المولى، وأمثالُ هذه الفوائد في البعثة كثيرة.

البعثة رحمة

فتقرّر أنّ البعثة رحمةٌ ومن كان منقادًا للنفس وأنكر البِعثة تبَعًا لحُكْم الشيطان اللّعين، ولم يعمل بمقتضى البِعثة فما ذَنْبُ البعثة فيه، وكيف لا تكون البعثةُ رحمةً بسبب خِذْلَانه) انتهى[1]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2]. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[3]، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4] الآياتِ.

ولقد أخبر الله تعالى هكذا بهذه الآيات فليس الأمر إلا كما أخبر ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[5]، وأيضًا قال العارف الشيخ الشعراني - ﷺ - في «الأنوار القدسية» ما لفظه: (وأقول: أيّ فائدة لما جاءت به السنة من

---

(١) «المكتوبات الربانية» (٢/ ٦١).
(٢) الأنبياء: ١٠٧.
(٣) الجمعة: ٢.
(٤) التوبة: ١٢٨.
(٥) الأنعام: ١١٥.

الأحاديث في الترغيب في العبادات، والترهيب في ارتكاب المحرمات؟ فرأيت النبيّ - ﷺ - في عَالَم غير هذا، وقال لي: لو لم نُبيِّنْ للخلق مراتبَ العبادات، وما فيها من الثواب ومراتبَ الْمُحَرَّمَات، وما فيها من العقاب لَقامَت الحُجّةُ علينا في الآخرة، وقيل لنا: هَلَّا بَيَّنْتُمْ مراتب الأحكام، وما فيها من الثواب، والعقاب، لَكِنَّا بادرنا إليها في دار الدنيا، فقد بَيَّنَّا فزال ما كنت أجده، وعلمت ما علمت - فصلى الله عليه وسلم - ما أحسنه من معلم، وبالله التوفيق) انتهى[1].

فائدة إنزال الكتب

وقال فيها في ٤: (فالمراد من إنزال الكتب، وإرسال الرُسُل - صلوات الله وسلامه - أن يُعَرِّفُوا العبيدَ وصفَهم، وما خُلِقُوا له فيَلْزَمُوه، ويُعَرِّفُوا ما لله - ﷻ - دونهم فلا ينازعوه فيه.

جميع الكتب الإلهية وثائق الله تعالى على عباده

وجميع الكتب الإلهية التي أنزلتْ: وثائق الله على عبادِه، وتحقيقٌ لما له عليهم، وما لهم عليه فإنّه أوجب على نفسه لعباده حقوقًا فضلًا منه، ونعمةً منه، فدخل معهم في العُهْدة فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[2]. فأَدْخَلَنَا تحت العهد إعلامًا بأنّا جَحَدنَا عُبوديّتنا له، إذ لو كنَّا عبيدًا محضًا له لم يكتبْ علينَا عَهْدَه، فلمَّا أيْقَنَّا بخروجنا

(١) بعد طول البحث لم أعثُر على هذه العبارة.
(٢) البقرة: ٤٠.

عن حَقِيقتِنَا، وادَّعَينَا الْمُلْكَ، والتَّصرّفَ، والأَخذَ، والعَطاءَ، كَتَبَ بَيْنَنَا، وبينَه عُقودًا، وأَدخلَ عَلينَا العهدَ، والْمِيثاقَ، وأدخلَ نفسَه معنا في ذلك) انتهى[1].

يعني أن هذه الكتب الإلهية كانت بين الله تعالى، وبين الخلق كالدفاتر، والسِجلات الكائنة في هذه الأزمنة الأخيرة بين الخلق الذين لا أمانة، ولا ثِقة فيهم.

وقال فيها في ٤٥: (إن العبدَ لما عرفَ وصفَه، وذلَّه ميَّزَ وصفَه من وصفِ ربّه فتركَ منازعتَه فخلعَ عليه ما لاقَ به من الأخلاقِ الحسنةِ لأدبِه معه، ولو تأمّلَه ما شرعَه عليه من التكاليف عَلِمَ يقينًا أنّه عبدٌ لا رائحةَ فيه من الرُّبوبيةِ، وباب العبودية كلُّه، ولذلك جعلت الطائفة الشريعة التزام العبودية) انتهى.

وقال فيها أيضا في ٤٥: (ومن شأنِه أي: العبدِ التسليمُ لله في جميعِ ما يفعلُه في خلقه راض به مشاهدٌ أنّ ناصيتَهم بين منازعٍ لخلقِه فيما خالفوا أمرَه) انتهى[2].

وقال فيها أيضا في ٤٤: (وقد كنت قديما أظنّ أنّ الأمر بالمعروف ينافي التسليمَ فسمعتُ هاتفًا على لسان الحق تعالى يقول: إذا شهِدتَ الأمر منّي وَحْدِي أَسلِمْ ولا تنازعْني وإذا شهدته من غيري أَنْكِرْ عليه ما خالف أمري).

---

(١) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» (ص٤)، و«لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية» (٢/ ١٥١).

(٢) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» (ص ٤٥).

وقال فيها كذلك: (ولا يقال الحقُ تعالى أقامَه في ذلك فلا يمكنه الخروج عنه، لأنّا نقول هذا ليس بحجة لأنّه يحتجّ بالإرادة، لأنّه لو صح في هذا الباب لردَّ جميعَ ما جاءت به الرسُل من الأوامر والنواهي، وتَبيينِ مراتب الأحكام، ولم يكن علم بشرف العلوم، وساوتْ جميعُ الأديان؛ لأنّهم كلَّهم لم يخرجْ عن الإرادة فافهم) انتهى.

وقال فيها في ٤٥: (ولو قُبِل من الخلق الاحتجاج بالإرادة لتساوتْ جميعُ الأديان، ومن اعتقدَ التساوي فقد كفر بالإجماع) انتهى[١].

وقال العلامة جلال الدين السيوطي في تفسير القرآن: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٢] إليهم ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، فبعثناهم[٤] لقطع عذرهم انتهى[٥].

وقال في «الفتوحات» في (١/ ٤٧١) (قوله: ﴿شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ﴾[٦] أي: معذرة يعتذرون بها قائلين: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فيبينَ لنا شرائعَك، ويعلّمَنا ما لم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشريّة

---

(١) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» (ص ٤٤-٤٥).

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) القصص: ٤٧.

(٤) وفي الهامش: فبعثناهم لقطع عذرهم. وفي الحديث الذي أخرجه البخاربي ومسلم والترمذي والإمام أحمد عن ابن عباس: (ولا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل. اهـ .(منه).

(٥) «تفسير الجلالين» (ص١٣٢).

(٦) البقرة: ١٥٠.

عن إدراك جزئيات المصالح، وعجز أكثر الناسِ عن إدراك كلياتِها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾[1] الآيـة.

المعذرة عند الله تعالى بمنزلة الحجة القاطعة

وإنما سميتْ حجّـةً مع استحالةِ أن يكون لأحد عليه - سبحانه - حجـةٌ في فعله من أفعالِه بل له أن يفعل ما شاء كما شاء، للتنبيه على أنّ الْمَعـذرة في القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه، ورحمتُه لعباده بمنزلة الحجة القاطعة التي لا مَرَدَّ لها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] انتهى أبو السعود[3]، وقوله: (بعد الرسل) يعني بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والمعنى لئلّا يحتج الناس على الله في ترك التوحيد والطاعة، بعدم إرسال الرسل، فيقول ما أرسلتَ إلينا رسولًا، وما أنزلتَ علينا كتبًا) انتهى[4]. ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾[5] ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

---

(١) طه: ١٣٤.

(٢) الإسراء: ١٥.

(٣) عبد الله بن عبد الله أبو السعود، (١٢٣٦- ١٢٩٥ هـ/ ١٨٢٠ - ١٨٧٨ م)، له كتب، منها « ديوان شعر - ط » و « سيرة محمد علي باشا - ط » أرجوزة، عشرة آلاف بيت، سماها «منحة أهل العصر ». «معجم المؤلفين» (٤ / ٢١٧)، و«الأعلام» (٤ / ١٠٠).

(٤) «الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية» (٢/ ١٥٩-١٦٠).

(٥) النحل: ٦٤.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] الآيـاتِ. فالأمـر في نفسـه ليـس إلاّ كمـا قـال الله تعالـى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[2].

وقـال العـارف الشـعراني - قـدس سـره - في «اليواقيـت» في ١٥٠ عـن الشـيخ الأكـبر محـي الديـن العربـيّ: (وأمـا القسـم الثـاني المسـمى بشـريعة حقيقـةً: هـو مـا جـاء على لسـان الصـادق المصـدوق مـن سـائر الأحـكام التي ليس للعقـل فيهـا مَدخَـل إلّا مـن حيـث قبولُهـا، والإيمـانُ بـها لا غيرُ كمـا مر في مبحـث المعجـزات إذ لـو اشـتغلت العقـول بأمـور سـعادتها لـكان وجـود الرسـل عبثًـا، ومعلـومٌ قطعًـا أنّ كلّ إنسـان منـا يَجهـلُ بالضـرورة مآلَـه، وإلـى أيـن ينتقـل، كمـا يجهـل أيضـا أسـباب سـعادته إن سـعد أو شـقاوته إن شـقي، وذلـك لجهلـه بعلـم الله السـابق منـه، وبمـا يريـد بـه، ولمـاذا خلقـه، فهـو مفتقـرٌ بالضـرورة إلـى التّعريـف الإلهـيّ لـه بذلـك، ولـولا إرسـال الرسـل مـا عرفنـا الفـرق بيـن الطاعـة، والمعصيـة، ولا تَمَيَّزَ أحدٌ مـن أهـل القبضتيْـن مـن الآخـر، فعُلـم أنّ بإرسـال الرسـل قامـتْ حجـة الله تعالـى على عبـاده، وظهـرتْ، ومـا سـعِد مَـنْ سـعِد إلّا بالقسـمة الإلهيّـة، ومـا شَـقِي مَـنْ شَـقِي إلّا بهـا، وليـس للرُّسُـل - عليهـم الصـلاة والسـلام - أثـرٌ في ذلـك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[3] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾)[4] انتهى[5].

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النساء: ٨٧.

(٣) الشورى: ٤٨.

(٤) القصص: ٥٦.

(٥) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ٢٢٢).

حكمة إنزال الكتب

وقال فيه في ١٥١ عن كتاب «سراج القلوب» للإمام أبي طاهر القِزْوِينيّ[(١)] ما نصه: (اعلم أنّ الله تعالى قد خلقَ جميع الكائنات من فضله، وكرمِه بعد أنْ لم يكن للكون أثرٌ، ولا للمُكَوَّن خبرٌ، ثم أنّه تعالى لما خلقَهم من فضله لم يترْكهم سُدًى مُهْمَلًا غافلين عمّا يرجع إلى مصالحهم في الأمور الدينية، والدنيوية، ولما كان الجليل - جلّ جلاله - منزَّهًا عن المَجيء إليهم، والنزول عليهم، ولم يكن كلامُه بحرف، ولا صوت حتى يسمعوا كلامَه كِفَاحا[(٢)] بعث إليهم رُسُلاً مبشّرين، ومنذرين لِيُبَلِّغُوا إلى أسماع عباده كلامَه، وقد أَلَمَّ بعض الشعراء بهذا المعنى:

ولما تعذر أن نلتقي * وزاد النزاع[(٣)] وجُدَّ[(٤)] القَدَمْ

سَعَيْتُ إليك برَحْلِ الرسول * وناجاك عنّي لسان القَلَمْ

قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[(٥)].

---

(١) لم نعثر على ترجمته.

(٢) كَفَحه كَفْحاً وكافَحه مُكافَحة وكِفاحًا: لَقِيَهُ مُوَاجَهَةً. «لسان العرب» (٢ / ٥٧٣).

(٣) وفي الهامش: «الشوق».

(٤) وفي الهامش: جد الشيء قطعه وبابه رد مخ. ويقال: جد النخل قطع ثمره. «المعجم الوسيط» (١/ ١٠٩).

(٥) النساء: ١٦٥.

إن الحقّ تعالى من جملة فضله إرسال الرسل إلينا كما أنّه خَلَقَنا بفضله من العدم إذ لا يجب[1] عليه تعالى شيء البتة) انتهى[2].

وقد مرّ أنّ انتظام أمر العالم منوطٌ بالأمر، والنّهي؛ لأنّه إذا ترك كلّ واحد على طَوْرِه وطبعه، لا يظهر منه غيرُ الشرّ، والفساد، ويعتدي على نفس الآخر ومالِه عند عدم الزّواجر، والموانع الشرعية.

لولا الأمير الذي تخشى بوارده * لقائت الزِنج بحبوحة الحرم

ألا ترى أنه لم تخل أمة إلى الآن فيما سمعناه عن نذير شرعي أو سياسي يقوم بمصالحها لبقاء سلامتها من الفساد، والله يهدي السبيلَ، وهو يَتَوَلّى هُدَاك، والسلام.

ثم لما كانت كثرة النزاع، والكلام بين العلماء الكرام، والعُرَفاء العظام، كَثَّرهم الله تعالى إلى يوم القيام من جهة أفعالِ وأكسابِ الأقوام، أردنا هنا نقلَ أقوال الأئمة الفِخَام الذين هم خواص أهل الله العلّام المتميزون بالكشف، والمشاهدة، وبالعلم، والمعرفة، وإن كان فيها غموض على أكثر الأفهام، والأذهان؛ لأنّ هؤلاء كانوا حكماء الزمان، وكلامهم أحلى من العَسَل المصفى، وألَذُّ من العِنَب المصطفى فاستمع بلا مُلالٍ؛ لأنه وفق مقتضى الحال، ومعلومٌ أنّ لكل مقام رجالٌ، ولكل رجال مقالٌ، ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3] كل على بينة إليها راجعون.

---

(١) وفي الهامش: لا يجب عليه تعالى شيء.

(٢) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ٢٢٣).

(٣) المؤمنون: ٥٣.

مطلب توحيد الأفعال

فأقول: قال العلامة العارف الشعراني - قدس سره - في «الأنوار القدسية في بيان آداب العبوديّة» في ٥٠٢ ما نصه: (واعلم أنه لا يقدر أحد على تخليص الفعل بجانب الحق تعالى؛ لارتفاع[١] حكمة الخطاب بالتّكاليف، ولأنّه لا يَأمر، ولا يَنْهَى إلا مَنْ له قدرة على فعلٍ). (وقد ثبت التكليف للخلق بالأوامر، والنواهي، وكون الإنسان خلق على الصورة من الاستخلاف على غيره، ويؤيد[٢] ذلك أنّه حينئذ يطلب وجود الفعل له، والحق يشهد له، ولذلك قال بعض مشائخنا بالميل إلى الكسب جزما؛ لأنه أقوى في الدلالة، ولا يقدح فيه رجوع ذلك إلى الله تعالى سبحانه وتعالى بحكم الأصل فإنّه لا ينافي هذا التقدير فما ضعفت حجة القائلين بالكسب؛ لأن ذلك لا خلاف فيه عند الفريقين؛ لأنه خبرٌ شرعيٌّ، وأمر عقلي، وإنما ضعفت حجتهم من نفيهم الأثرَ عن القدرة الحادثة فافهم.

وجميع شرائع الأنبيآء على هذا الحكم

وكذلك أيضا لا يقدر أحد على تخليص الفعل[٣] لجانب الخلق لا من طريق النقل، ولا من طريق الكشف، وجميع شرائع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على هذا الحكم فلم تأت شريعة تُخَلِّصُ الفعل لأحد الجانبين؛

---

(١) وفي الهامش: وذلك قدح في الخطاب والتكاليف وذلك مباهتة للحس. (منه).

(٢) يوجد كتابة مطموسة لا نستطيع قرائتها.

(٣) وفي الهامش: من جميع الجهات.(منه).

لأنّك إنْ نسبت الفعل إلى قدرة العبد كان لذلك وجه في الأخبار الإلهية؛ وإن نسبت الفعل إلى الله تعالى كان لذلك وجه فيه أيضًا.

وأما الأدلة العقلية فهي متعارضة، وإن كانتْ غير متعارضة في نفس الأمر، وإيجاد الفعل لا يكون بالشركة، ولهذا لم يلحق المعتزلة بالمشركين؛ لأنهم أضافوا أفعال العباد للعباد فما جعلواهم شركاء، وإنما أضافوا إليهم عقلًا، وصدَّقهم الشرع في ذلك.

والأشاعرة أضافوا فعل الممكنات كلّها من غير تقسيم لله عقلًا، وساعدهم الشرع على ذلك، وهذا أقوى عند أهل الكشف من أهل الله تعالى، فعلم أنّ هذه مسألة لا يتخلص فيها توحيدٌ لجانبٍ البتةَ فيقرها كما أقرها الله.

فلا بد من عينين

فلا بد في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1] من عينيْن: عينٍ تُدْرِكُ بها أنّ الرميَ لله تعالى، وعينٍ تدرك بها أنّ الرميَ للعبد، وصاحب العين الواحدة أعور من نقير[2]، وغيره. فلا يعلم حقيقةَ هذه المسألة إلا أهلُ الكشف خاصة.

وأما غيرهم فلا يزالون مختلفين دنيًا وأخرًى، غير أنّ الجنة لا نزاع فيها كالدنيا؛ لأنّ كلّ واحد قد قرره الحقّ على اعتقاده فما في المسائل

---

(١) الأنفال: ١٧.

(٢) النقير: ما نقر من الحجر والخشب ونحوه، ويضرب به المثل في الشيء الضعيف ففي التنزيل العزيز: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، والفقير المسكين، وثقب دقيق في القصرة، ويقال فقير نقير، النقيرة: سفينة صغيرة. «المعجم الوسيط» (٢/ ٩٤٥).

الإلهية ما[1] يقع فيه الحِيرَةُ أكثر، ولا أعظم من مسألة الأفعال المحمودة، والمذمومة لا سيّما في الكلام على تحقيق ذلك، وهنا يقال بوجوب الإيمان بطريقين متناقضين، وهو من أعجب الأمور.

العلم تابع للمعلوم لا حاكم عليه

فإذا علمت جميع ما قررناه علمتَ أنّ حجة الله قائمةٌ على عبده في كل حالة هو فيها عُلُوًّا، وانخفاضًا؛ لأنّ العلم تابع للمعلوم، وما هو حاكم على المعلوم فإذا قال: لِمَ تؤاخذُني؟ قال له الحقّ: وهل أخذتُك إلّا بما أنت عليه في حال عدمك، فما أبرزتك إلّا على قدْر ما أعطيتَني من ذاتك بقبولك فيعرف أنّه الحق فتندحض[2] حجّة الخلق في موقف العرفان، فاعترافُ العبدِ بالعجز والتقصير أولى في كل أحواله فتأملْ في هذا المحلّ فإنك لا تجده في كتاب.) انتهى ع[3].

وعبارته أيضا في «المنن» في ١٧٠: (اعلم يا أخي أنّ العقل يقصُرُ عن فهم مسألة خلق الأفعال من غير إشكال، ولا يُخرجك عن الإشكال فيها إلا الكشفُ الصحيح على نزاع في ذلك أيضًا أو إنّك تترقى في المواد الكونية، وأنت صاعد حتى تنظر إلى الحق تعالى بقلبك، وهو يخلق المخلوق الأول الذي لم يتقدمه مادة فإنك تجد الحق تعالى فاعلًا وحدَه لا شريك له، ثم تتنزل في الفروع إلى أسفلَ مع مشاهدة سَرَيان القدرة الإلهية في كلّ

---

(١) في الأصل: «من».

(٢) ودحضتُ حجتَه دحوضا: إذا بطّلت. «لسان العرب» (٧/ ١٤٨).

(٣) «لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق» (ص ٦٥٨-٦٥٩).

من أضيف إليه فعلٌ من الخلق، فتجده لا يقدر على فعل إلا بإمداد القدرة الإلهيّة، ومن هذا اتضح باب الإشكال؛ لعدم تخليص الفعل في الشهود البصَري لله وحدَه أو للخلق وحدَهم، ووقع الخَبْط فمن أضاف الأفعالَ كلّها إلى الله حَسَنَها، وقَبيحَها، قال له لسان الغَيْرَةِ الإلهيّة: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1] فإنّ نسبةَ الأفعال إلى الخلق نسبةُ إضافة وإسناد، لا نسبةُ خلقٍ وإيجادٍ، ومن أضاف الأمور الحسنة كلَّها إلى الله تعالى، وأضاف القبيحة كلّها إلى الأكوان قال له لسان الجود[2] الإلهي ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[3] لا تكذيبًا له بل ثناءً جميلاً كما نضيف نحنُ ما قَبُحَ من الأفعال مما لا يوافق الأغراضَ، ولا يلائم الطبع، إلينا مع علمِنا بأنّ الكلّ من عند الله، ولكنْ لما تعلّق به لسان الذمّ فدنيا ما ينسب إلى الحق من ذلك بنفوسنا أدبًا مع الله تعالى إنّا نضيف ما كان من خيرٍ وحَسَنٍ إلى الله تعالى، ونرفع نفوسنا من الطريق حتى يكون الحق تعالى هو المحمود وحده أدبًا مع الله تعالى، وإن كان هو الله تعالى في الحقيقة بلا شك مع ما فيه من رائحة الاشتراك بالخبر الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[4] وفي قوله عز من قائل: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[5] وإن كان المراد من نفسك إسنادًا لا إيجادًا.

---

(١) النساء: ٧٨.

(٢) في الأصل: الجودي.

(٣) النساء: ٧٨.

(٤) الصافات: ٩٦.

(٥) النساء: ٧٩.

أضاف الله العمل وقتا إلينا ووقتا إليه تعالى

وقال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1] فأضاف تعالى العمل وقتًا إلينا، ووقتًا إليه فهذا هو سبب قولنا مع ما فيه من رائحة الاشتراك.

وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2] فأضاف الكلّ إلينا، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[3]، فله الإلهام فينا، ولنا العمل بما ألهَمَ.

وقال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾[4]، فقد يكون عطاءه خَلْقَ العمل فافهم.

لا بدّ من ظهور الأفعال من حق وخلق

فإنّ هذه المسألة لا يَخْلُصُ فيها توحيد الفعل أصلًا لا مِن جهة الكشف، ولا من جهة الخبر الإلهيّ.

فالأمر الصحيح في ذلك أن الحكم مربوط بين حقّ، وخلق غير مُخَلَّص لأحد الجانبين فإنّ أعلى ما يكون من النِّسَب الإلهية عند أهل الوَحدة المطلقة أن يكون الحق تعالى هو الموجود وحده، وما ثم إلا وجود الحق لا غيره، والتغيرات الظاهرة هي أحكام أعيان الممكنات الموجودة في العلم

(١) النساء: ٧٨.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) الشمس: ٨.

(٤) الإسراء: ٢٠.

الإلهي فلو لا العين ما ظهر الحكم، ولو لا الممكن ما ظهر التغير فلا بد في ظهور الأفعال من حق، وخلق، وفي مذهب الأشاعرة أن العبد محل ظهور أفعال الله تعالى، وموضع جريانها فلا يشهد بها الحِسُّ عندهم إلّا من الأكوان، ولا تشهدها بصيرتهم إلّا من الله تعالى من خلف حجاب، هذا الذي ظهرت على يديه، المريدُ لها المختارُ فيها، فهو لها مُكْتَسِبٌ باختياره.

وفي مذهب المعتزلة أنّ الفعل للعبد حقيقة، ومع هذا فَرَبْطُ الفعل عندهم بين الحقِّ، والخلق لَا يزولُ فإنّهم يقولون: إن القُدرةَ الحادثة التي يكون هذا الفعل من الفاعل، هي خلق الحقّ تعالى، ولو لا أنّه تعالى خلق للعبد القدرة لما قدر على الفعل فما يتخلّص الفعل للعبد عندهم إلّا بما خلق الله فيه من القدرة عليه فما زال الاشتراك، هكذا قرّره بعض المعتزلة خلاف ما شاع منهم انتهى ع[1]. فراجعه ففيه بسط نفيس.

كسب لممكن

وعبارته - قدس سره - في «الطبقات» في (٢/ ١٣٦) : (وكان - ﷺ - يقول: حقيقة القول بالكسب في مسألة خَلق الأفعال يعني الكسب تَعَلُّقُ إرادةِ الممكن بفعل ما فيُوجِده الاقتدار الإلهيّ عند هذا التعلق فسَمَّوْا ذلك كسبًا للممكن يعني أنّه كسب الانتفاع به بعد احتياجه، ثم قال: ومن حَقَّقَ النظر عَلِمَ أنّه لا أثر لمخلوق في فعل شيء من حيث التّكوينُ، وإنّما له الحكم فيه فقط، فافهم.

---

(١) «لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق» (ص ٦٥٧- ٦٥٨).

فإنّ غالبَ الناس لا يفرق بين الحكم والأثر، وإيضاح ذلك أنّ الله تعالى إذا أراد إيجادَ حركة أو معنى من الأمور التي لا يصحّ وجودُها إلّا في موادّها؛ لاستحالة أن تقوم بنفسها إذ لا بدّ من وجود محلّ يظهر فيه تكوين هذا الذي لا يقوم بنفسه، فللمحلّ الذي هو العبد حكم في الإيجاد لهذا الممكن، وما له أثرٌ فيه، ولو لا هذا الحكمُ لكان نسبة الأفعال إلى الخلق مباهتة للحسّ، وكان لا يُوثَق بالحس في شيء.

وسمعتُه مرةً يقول ليس للمكن قدرة أصلًا، وإنما له التمكّن في قبول تعلّق الأثر الإلهيّ به؛ لأنّ النعت الأخصّ الذي انفردتْ به الألوهيّة كونها قادرةً، فإثبات القدرة للممكن دعوًى بلا برهان.

قلت: وهذا الكلام مع الأشاعرة المُثبتين لها مع نَفي الفعلِ عنها.

مسألة الكسب لا يزول إشكالها إلا من طريق الكشف

وقلت له مرةً: ذكر الإمام الغزالي - ﷺ - أنّ مسألة الكسب لا يزول إشكالُها أبدًا، فقال: بل يزول إشكالها من طريق الكشف، وذلك أنّ الله تعالى خالق وحدَه بإجماع أهل السنة، وإنّما للعبد قبول إسناد العمل إليه، لا غير.

ثم قال: ومن أراد زوالَ اللَّبْس بالكلّية فلينظر في المخلوق الأول الذي لم يتقدّمه مادة أبدًا، ويتأمّل هل هناك أحد يسند إليه الفعل، فيسقط قول من قال: لا يوجد لنا قط فعل الله تعالى لا بد من مشاركة الكون فتأمّل.

قلت وذكر نحو ذلك سيدي الشيخ محي الدين - ﷺ - في «الفتوحات» انتهى[1].

---

(١) «الجواهر والدرر الكبرى» (ص ٥٥-٥٦).

وعبارة الإمام الرباني - قدس سره - في «المكتوبات» في (٢/ ٢٠):
(وكما أنّ العِباد مخلوق الحقّ سبحانه، أفعال العباد أيضًا مخلوقه تعالى، فإنّ الخلق لا يليق بغيره، وإيجادُ ممكن لا يجيء من ممكن، فإنّه متّسم بقصور القُدرة، ومتّصِف بنقص العلم لا يليق بالإيجاد، والخلقِ، ودخلُ العبدِ في أفعاله الاختيارية إنّما هو بكسبه الواقع بقدرته، وإرادته، وخلقُ الفعل من الله سبحانه، وكسبُه من العَبد، ففعلُ العبد الاختياريّ واقع بمجموع كسب العبد، وخلق الحقّ - جل وعلا - فلو لم يكن لكسب العبد، واختياره مَدخل في فعله يكون حكمه حكمُ المرتعش، والفرق محسوسٌ، ومشاهدٌ).

خلق الله تعالى تابع لقصد العبد

فإنا نعلم بالبَداهة أنّ فعلَ المرتعِش غيرُ فعل المختار وهذا القَدْر من الفرق يكفي لمدخلية كسب العبد في فعله، وجَعْلُ الحقّ سبحانه خلقَه تابعًا لقصد العبد في فعله من كمال رَأْفَته حيث يوجد الفعل في الفعل بعد تعلّق قصد العبد به، فيكون العبدُ بالضّرورة ممدوحًا، ومَلومًا، ومُعاقَبًا، ومُثابًا، وقصد العبد، واختيارُه اللذان أعطاهُما مِنْ قَبْلُ الحقُّ سبحانه يتعلّقان بجهتَيْ الفعلِ، والتركِ، وأيضًا قد بيّن الحق سبحانه حسنَ الفعل، والترك، وقبحَهما بلسان الأنبياء - عليهم الصلواة والتسليمات - بالتفصيل، فمع وجود ذلك لو اختار العبد إحدى الجِهتين لا بدّ من أن يكون ملامًا أو ممدوحًا.

الله تعالى أعطى العبد من القدرة والاختيار مِقدار ما يمكن له الخروجُ من عُهدة الأوامر والنواهي

ولا شكّ أنّ الحق سبحانه أعطى العبدَ من القدرة، والاختيار مِقدار ما يمكن له الخروج من عُهدة الأوامر، والنواهي الشّرعيتين، ولماذا يلزم إعطاء قدرة كاملةٍ، واختيار تام، وقد أعطى مقدار ما يحتاج إليه، وإنكار المنكرين مصادم للبداهة، وبِهِمْ مَرَضٌ قلبيّ عجزوا به عن إتيان الأحكام الشرعيّة ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[1].

وهذه المسألة[2] من غوامض المسائل الكلاميّة، ونهايةُ شرحها، وغايةُ بيانها هي ما سُوّد في هذه الأوراق، والله سبحانه الموفّق، ينبغي الإيمان بما قاله علماء الحقّ دون أن يقع في البحث، والجَدَل انتهى.[3]

وقال - قدس سره - فيها في (١/ ١١٢): (لا مدخل للقدرة، والكسب في حركة الارتعاش، وفي حركة الاختيار مَدخل لهما، وهذا القَدْر من الفرق يكون باعثًا على المُؤاخذة، ومثبتًا للثّواب، والعِقاب)[4].

وقال الشعراني في «اليواقيت» في ١٣٠ عن الشيخ محي الدين العربي - قدس سره -: (إنّ صورة مسألة الأفعال صورة لام ألف في حروف الهجاء فإنّ الرائي لا يدري أيُّ الفخذين هو اللام حتى يكون الآخر هو الألف ويسمى هذا الحرف الذي لام ألف حرفَ الالتباس في الأفعال فلم

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) وفي الهامش: وهذه المسألة من غوامض إلخ.

(٣) «المكتوبات» (٣/ ١٢٩-١٣٠).

(٤) «المكتوبات» (ص ٤٩٤).

يتخلّص الفعل الظاهر على يد المخلوق لمن هو، ولكن إن قلتَ: هو لله صدقت، وإن قلتَ لمخلوق صدقت، ولو لا ذلك لما صحّ خطاب الله للعبد بالتكليف، ولا إضافة العمل إليه بنحو قوله ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] انتهى[2].

وقال فيه أيضا عنه - ﷺ- في ١٣٠: (لولا النسبة بين الربّ، والمربوب يعني ربط الاستمداد بالحق لما دلّ العبد على الربّ، ولا قبل التخلّق بأخلاقه، وبتلك النّسبة كان الحقّ تعالى مكلّفًا عبادَه بالأمر، والنهي، وبها عينِها كان المخلوق مكلّفًا مأمورًا مَنهيًّا.

قال: فحققْ ما نبّهناك عليه فإنّي أظنّ أنه ما طرق سَمْعَكَ قطّ، وإن لم تكن كذلك فاتَك أدب كثير)[3]. وقال - ﷺ- فيه: (واعلم يا أخي أن مسألة الكسب من أدق مسائل الأصول، وأغمضها، ولا يُزيل الإشكالَ إلا الكشفُ على نزاع في ذلك كما سيأتي في نقول الصوفية.

وأما أرباب العقول من الفِرق فهم تَائِهُون[4] في إدراكها، وآراؤُهم مُضطرِبة فيها، وذلك أنّ أفعالَ الإنس، وجميعِ الحَيوانات، وحركاتهم في معايشهم، وتصرّفاتهم مشاهدةٌ لا إنكار لها من أحد.

---

(١) التوبة: ١٠٥.

(٢) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١٩٢).

(٣) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١٩٢).

(٤) وتاه في الأرض يتيه توها وتَيْها وتِيها وتَيَهَانا، والتيه أعمها، أي: ذهب متحيرا وضلَّ، وهو تَيَّاه. وفي الحديث: (إنّك امرؤ تائه) أي: متكبّر أو ضال متحيّر. «لسان العرب» (١٣/ ٤٨٢).

ثم إذا رجّحنا حاكمَ العقل لا يكاد يحكم بثبوتها حكمًا جليًّا، بحيث لا يبقى حَزَازَة في الصدر) انتهى[1].

القضيات العقلية في مسألة الأفعال ثلاثة

وقال فيه أيضًا: (وكانَ الشيخُ أبو طاهرِ القزوينيُّ - رحمه الله تعالى - يقولُ: القضياتُ العَقليةُ في هذه المسألةِ ثلاثةٌ وهي: إمّا أن تكون الأفعالُ كلُّها مقدورةً لله تعالى على الاستبدادِ أو مقدورةً للخلقِ على الاستبدادِ، أو تكون مقدورةً بين قادريْنِ فيلزمُ عليه أنّ الحركةَ الواحدةَ تعلّقَ به قدرتان قديمةٌ وحادثة، وهي إذا تعلقتْ بها قدرةٌ واحدةٌ استغنتْ عن القدرة الثانية، فما فائدة الثانية وما متعلقاتُها؟ وما كيفية تعلّقها؟ وهي بالقدرة الأولى كائنة موجودة، وحالاتُها ثلاثٌ: حالةُ عدم، وحالة وجود، وحالة إيجاد، وتعلق القدرة الثانية في هذه الحالات الثلاث محالٌ.

ثم لو قدَّرنا مقدورًا بين قادرين خاصة بدواعيهما، وإرادتيْهما لَوَجب أنّه إذا منع أحدُهما فعلَه، ولم يمتنع الثاني كان الحاصل فعلا موجودا معدوما، وهو من أمحل المُحال.

بقي أن يقال: إنما يلزم المحال إذا تعلّق به قدرتان من وجه واحدٍ، أما إذا كان الفعل مضافا إلى قادريْن من وجهيْن مختلفيْن فلا استحالة فيه، وذلك أنّ تعلق القدرة القديمة من وجه الإيجاد، وتعلّقَ القدرة الحادثة من وجه الاكتسات، وهذا غير محال.

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١٩٠).

الاكتساب للموجد محال كما أن الإيجاد للمكتسب محال

فيقال لو جاز ذلك لجاز أن يقع الوجهان في حالتيْن يعني كان الموجود بإيجاد القدرة القديمة في حالة ويقع الحدوث باكتساب القدرة الحادثة في حالةٍ ثانية، وهو محال إذْ حدوثها قد حصل بالقدرة القديمة، فكيف يقال تعلّقت القدرةُ الحادثةُ بها بعد وجودها، ولو وقع الفعل بقدرة ممتزجة من القديم والحادث حتى تصلح للإيجاد والاكتساب كان من أمحل المحال على أنّ الاكتساب للموجد مُحال، والإيجاد للمُكْتَسِب محالٌ، وهذا القسم مع دقّته، وغموضه هو اختيار الشيخ أبي الحسن الأشعري، وممن تابَعَه النجار[١] من المعتزلة على اختلاف بينهما.

قال الشيخ أبو طاهر: وإنما اختار الأشعريّ ومن تابَعَه هذا القسمَ على مذهب الجبريّة، ومذهبِ المعتزلة؛ لكونه أسْهلَ من مذهبيْهما.

قال الشاعر:

إذا لم يكن إلّا الأسنةُ مَـرْكَبَا * فلا أرى للمضطرّ إلّا ركوبها[٢]

---

(١) الحسين بن محمد بن عبد الله النجار الرازيّ، أبو عبد الله، (٠٠٠ - نحو ٢٢٠ هـ / ٠٠٠ - نحو ٨٣٥ م)، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة، وإليه نسبتها، كان حائكا، وقيل: كان يعمل الموازين، من أهل قم، وهو من متكلمي (المجبرة) وله مع النظام عدة مناضرات، وأكثر المعتزلة في الريّ وجهاتها من النجارية، وهم يوافقون أهل السنة في مسألة القضاء والقدر واكتساب العباد وفي الوعد والوعيد وإمامة أبي بكر، ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات وخلق القرآن وفي الرؤية. «الأعلام» (٢/ ٢٥٣).

(٢) هذا الشعر مكسور الوزن، والرواية الصحيحة:

إذا لم يكن غير الأسنة مركبا * فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ومن أجل هذا الاعتراض افترق أصحاب الشيخ ابي الحسن فقال بعضهم: لا أثر للقدرة الحادثة أصلًا في المقدور فيلزمه الجبر. وقال آخرون: القدرة الحادثة لها أثر في المقدور، وهو اختيار القاضي أبي بكر البَاقِلّاني[1]، واستدلّ بأن الإنسان يُحس من نفسه تفرقة بين حركتيِ الاضطرار، والاختيار، وهذه التفرقة لا ترجع إلى نفس الحركتيْن من حيث الحركة؛ لأنّهما مِثْلَان، بل ترجع إلى أمر زائد عليها، وهو كون إحداهما مقدورة مرادة، والثانية غير مقدورة، ولا مرادة) انتهى[2].

وقال فيه: قال الشيخ أبو طاهر: (وحاصل الأمر أنّ أبا المعالي كان تارةً يُثبت أثَرَ القدرة الحادثة، وتارة يَنفيه، هذه نهايةُ مذاهب الأئمة في هذه المسألة العَوِيصة المشكلة، فمَنْ تأمّلَها، وكرّر النَظَر فيها عَلِم غموضَ معانيها، وصعوبةَ مَراقِيها.

فإنّ العبد بين طرَفي الاضطرار مضطرٌّ على الاختيار

ومُلَخَّص الأمر أنّ مَنْ زعَمَ أنْ لا عَمل للعبد أصلًا فقد عانَدَ، وجحَدَ، ومَنْ زعمَ أنه مستبد بالعمل فقد أشرَكَ، وأبدَعَ، وما بقي مَورد التكليف إلّا

---

(١) أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد البصري المالكي الأصولي، (ت ٤٠٣ هـ)، المتكلم صاحب المصنّفات، وأوحد وقته في فنه. روى عن أبي بكر القطيعي، وأخذ علم النظر عن أبي عبد الله بن مجاهد الطائي صاحب الأشعري، وكانت له بجامع المنصور حلقة عظيمة. قال الخطيب: كان ورده في الليل عشرين ترويحة في الحضر والسفر، فإذا فرغ منها كتب خمسا وثلاثين ورقة من تصنيفه. «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (٥/ ٢١).

(٢) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١٩١).

ما يجده العبد في نفسه من الاختيار للفعل، وعدمِه، فإنّ العبد بين طرفي الاضطرار مضطرٌّ على الاختيار، والله تعالى أعلم.

هذا أحسن ما وجدته من كلام المتكلمين.

وأما كلام الصوفية في هذه المسألة فأكثر مِنْ أنْ يحصى، ولكن نشير إلى طرف منه فلعلّ اللهَ يوضّح بعضَ معانيها حتى يأتيَنا الكشفُ عن الحقّ فيها، وزوالُ اللَّبْس إن شاء الله)[1].

وقال فيه أيضا في ١٣٩ عن الشيخ الأكبر محي الدين العربيّ - ﷺ -: (اعلم يا أخي أنّ مسألة خلق الأفعال، وتعقّلِ وجهِ الكسب من أصْعب المسائل. قال: وقد مكثتُ دَهري كلّه أسْتَشْكِلُها، ولم يُفْتَح لي بالحقّ فيها على ما هو الأمر عليه إلّا ليلة تقييدي لهذا الباب في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكنت قبل أن يفتحَ عليّ بذلك يعسُر عليّ تصوّر الفرق بين الكسب الذي يقول به قوم، وبين الخلق الذي يقول به قوم، وما كنتُ أَعتقد الجبرَ المحض، والآن قد عَرَفْتُ تحقيقَ هذه المسألة على القطع الذي لا شكّ فيه، وعرفتُ الفرق بين المذاهب الثلاث فيها، وذلك أنّ الحقّ تعالى أوقَفَني بكشف بصيرتي على المخلوق الأوّل الذي لم يتقدّمْه مخلوقٌ إذ لم يكن ثَمَّ إلّا الله وحدَه، وقال لي: انظر هل ههنا أمرٌ يُورث اللَّبْس، والحِيرة قلت لا يا رب فقال: هكذا جميع ما تراه من المحدثات ما لأحد فيه أثر، ولا شيء من الخلق فأنا الذي أخلق الأشياءَ عند الأسباب لا بالأسباب فتتكون عن أمري، خلقتُ النفخ في عيسى، وخلقت التكوين في الطائر قلتُ له يا ربّ فنفسك إذا خاطبت: افعل، ولا تفعل فقال: إذا

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١٩١-١٩٢).

طالعتك بشيء من علمي فالزم الأدبَ ولا تُحَاقِقْ فإنّ الحضرة لا تقبل المحاققة، فقلتُ يا ربّ وهذا عين ما نحن فيه، ومن يحاقق، ومن يتأدّب إلّا أن خلقتَ الأدبَ، والمحاققةَ فإن خلقتَ المحاققة فلا بدّ من وقوعها، وإن خلقتَ الأدب فلا بد من وجوده قال هو ذاك فاسْمَعْ، وانصِتْ.

قلت: ذلك يا رب أُخْلُقِ السّمع حتى أسمع، والإنصاتَ حتى أُنْصِتَ، وما يخاطبك الآن سوى ما خلقتَ، وحدَك فقال لي: ما أخلُقُ إلّا ما علمت، وما علمتُ إلا ما هو المعلوم عليه حين تعلّق به علمي في الأزل، ولي الحجة البالغة) انتهى.

وسيأتي إيضاحُ ذلك في المَبْحث الذي بعده إن شاء الله تعالى فتأمّلْ يا أخي في هذه النّقول، ولكن مع اجتناب ما يُسخِط الله - ﷻ.

فإنّ القلبَ المُظْلِم مِنْ لازمه الاستشكالُ في الأمور الواضحة فضلًا عن مثل هذه المسألة، وقد قال الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى -: هذه مسألة لا يزول إشكالها في الدنيا وهو معذور) انتهى[1].

وقال - قُدّس سرّه - في «المنن» في ١٧٤: (وذكر الشيخ في «لواقح الأنوار» ما نصه: اعلم أنّ مِنَ الأولياء مَنْ أُعطي التَّصَرُّفَ بـ«كن»، وتَرَكَه أدبًا مع الله تعالى، وقال: إنّ الفعل حقيقة ليس هو لنا عقلًا، ولا كَشْفًا.

فلمّا تبيّن ذلك قال: فنحن نُضيف الفعلَ إلى الله تعالى حِسًّا كما أضفناه كشفًا، وعقلًا لنَسْلَمَ من الآفَة التي ربما دخلت على المتصرّف بـ»كن»، ولو أنّه كان للفعل نسبةٌ محقّقة إلينا ثم تركناه، وقلنا للحق افعله عنا لَوقعْنا في

---

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ٢٠٠).

سوء الأدب، وكان نسبة فعلنا إلينا هو عينُ الأدب مع الله تعالى، وأطال في ذلك.

ثم قال: فعلم أنّ من المحال أن يقول الحكيم امش يا مُقْعَد، وافعلْ يا من لا يفعل فإنَّ الحكمةَ لا تقتضِيه، فبَقِيَ وجهُ نسبة الفعل إلى الفاعل ينبغي أن تُعرَف، والعبارة تقصُرُ عن ذلك.

فقد بان لك يا أخي أنّ الكشف، والشرعَ، والعقلَ ما خلَّصتْ لنا شيئًا، ولا تُخَلِّصُ أبدًا دنيًا، ولا أخرًى فالأمر في نفسه، والله أعلم ما هو إلا كما وقع فيه تخليصٌ؛ لأنّه في نفسه غير مُخَلَّص، إذ لو كان لنفسه مخلصًا لا بدّ أن كان يطّلع عليه بعضُ هذه الطوائف من جهة العقل أو الكشف، ولا يسَعُ أن نقول: الكلّ على خطأ فإنّ في الكل الشرائعَ الإلهيّة ،ونسبةُ الخطأ إليها محال، وما يخبر بالأشياء بما هي عليه إلا الله تعالى، وقد أخبَرَ فما هو إلّا كما أخبر؛ لأنّ مرجع الكلّ إليه فما خَلَصَ فهو مخلص، وما لم يخلُص فما هو في نفسه مخلّص فإنّه يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

فقد اجتمع قول الحق تبارك وتعالى، والعالم جميعه في هذه المسألة على الاشتراك، وهذا هو الشرك الخفيّ، والجليّ، وموضع الحَيْرة، فما ثم من قال: الأفعال كلُّها لله تعالى من غير رائحة اشتراك قط. هذا تقرير المذاهب الإسلامية.

وأما أحوال الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - فاعتقادُنا فيهم أنّ الأمور كلّها مكشوفة عندهم ليس عندهم حَيْرَة، فتأمل يا أخي في هذه المسألة، وأمعنِ النظرَ فيها، فإنّ فيها خضعتْ أعناق فحول الرجال.

الكسب

وعبارة الزركشي[١] في «جمع الجوامع» بعد كلام طويل: وأَحْسَنُ ما قيل في تعريف الكسب: (أنّه المقدور الحاصل بالقدرة القديمة في محلّ القدرة الحادثة) فالذي يجب اعتقادُه أنّ الله تعالى خالق أفعال العِباد، وأنّها مكتسبة لهم، وأنّ حجة الله قائمة عليهم، وأنّه لا يُسأَل عمّا يفعل، ولا يطلب الوصول إلى الغاية في ذلك فلسنا مكلَّفين بها مع صعوبة مرامها انتهى كلامه.) انتهى[٢]. الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلاّ على الظالمين.

وإنما يخاف على الهلاك من دار في الشواهق

وقال ولي الله تعالى الشيخ الحاج محمد الأواري العبوديّ[٣] - قدّس سره - في «كَنز الدُّرر على المختصر»: (وما وضعت قدمًا أصعب من توحيد الأفعال هذا، وما ذُقت واردًا أخطر من فتح الأسرار، وإنما يخاف الهلاك على من دار في الشواهق، وإشراف الأطراف؛ لأنّ في هذا المقام كما مرّ -أنّ

---

(١) محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، الشافعي، (٧٤٥ - ٧٩٤هـ/ ١٣٤٤ - ١٣٩٢م)، من تصانيفه الكثيرة: «الديباج في توضيح المنهاج» للنووي، «شرح جمع الجوامع» للسبكي، «قواعد تضبط للفقيه أصول المذهب». «معجم المؤلفين» (١٠/ ٢٠٥).

(٢) «لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق» (ص ٦٥٩).

(٣) الشيخ العالم بالعلم اللدني والفَهم الرباني؛ الحاج محمد أفندي العُبُودِيّ؛ وصل - ﷺ - إلى مقام ادّعى به على القطبانية الكبرى، والولاية العظمى، وكان - ﷺ - في اتباع السنة النبوية، وانقياد الشريعة المطهّرة، وتكميل الطرق المحمدية، وإحياء مندرسات الكمالات الأحمدية، وإرشاد الخلق إلى الطريقة المصطفويّة، بحيث يعجز عنه كل عالم عامل، ووليّ مرشد كامل، «طبقات الخَواجكان النقشبندية» (ص ٤٣٢).

من ذاق يدري، ومن لا فلا- فُنونًا كثيرةً يتعطّل بها الشرع من المتصوفين، وطاقات عديدةً يشرف منها الزهاد في عمارة الطاقة إلى خراب الزندقة، وموت الإرداد[1]، والعياذ بالله تعالى.

ويندرس عنها آثار البعثة، وأغراض الإرشاد، والعباذ بالله تعالى بنفي الأخذ عن العباد في الاكتساب بتوحيد الأفعال فلا ينجو عن الخطر، والهلاك من في هذا المقام إلا بالتثبت على الشرع الْمُنيف، والاقتداءِ بالرسول الرؤوف، وهو سيد الخلائق أخلاقًا، وأخشاهم قلبًا، وأتقاهم ورَعًا، وأتمهم عقلًا، وأعلاهم فَهْمًا، وأذكاهم نفسًا، وأسناهم علمًا) انتهى.

الكسب والاختيار عبارتان عن معبَّر واحد

وقال في «الإتحاف» على «الإحياء»: (أنّ الاختيار، والكسبَ عبارتان عن مُعبَّر واحدٍ، ولكن الأشعري آثَرَ لفظَ الكسب على لفظ الاختيار؛ لكونه منطوقَ القرآن، والقومَ آثَرُوا الاختيارَ؛ لما فيه من شعار قدرة العبد) انتهى في (٢/ ٩)[2].

كيف الجمع بين التوحيد والشرع

قال في «الإحياء» في (٤/ ١٧٢): (فإنْ قلتَ: كيف الجمع بين التوحيد، والشرع. ومعنى التوحيد أنّ[3] لا فاعل إلاّ اللهُ، ومعنى الشرع

(١) لعلّ الإرتداد، والله أعلم.
(٢) «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» (٢/ ١٣-١٤).
(٣) في الأصل: «أن» محذوفة.

إثباتُ الأفعال للعباد، فإنْ كان العبد فاعلًا فكيف يكون الله تعالى فاعلًا، وإن كان الله تعالى فاعلًا فكيف يكون العبد فاعلا، ومفعول بين فاعلين غير مفهوم؟

فأقول: نعم، ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنًى واحدٌ، وإن كان له معنيان، ويكون الإسم مجمَلا متردّدا بينهما لم يتناقضْ كما يقال (قتل الأمير فلانا)، ويقال (قتله الجَلَّاد)، ولكنّ الأميرَ قَاتِلٌ بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر، فكذلك العبد فاعل بمعنى، والله - ﷻ - فاعل بمعنى آخر، فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنّه المُختَرِع المُوجِد، ومعنى كون الفاعل للعبد[1] فاعل أنّه المحلّ الذي خُلق فيه القدرة) إلى أن قال: (بل صرّح، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[2] وهو جمع بين النفي، والإثبات ظاهرًا، ولكن معناه (وما رميت) بالمعنى الذي يكون الربّ راميًا (إذ رميت) بالمعنى الذي يكون العبد به راميًا إذ هما مختلفان) انتهى[3].

وقال في «اليواقيت» في ١٣٣ عن محي الدين العربي - قدس سره - في قوله تعالى: (﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[4] اعلم في هذه الآية إثبات القتل لغيره، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه) انتهى.

---

(١) وفي الهامش: وكذا في الأصل، ولعل الصواب ومعنى كون العبد فاعلا (منه).

(٢) الأنفال: ١٧.

(٣) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٥٧).

(٤) الأنفال: ١٧.

(وقوله: «إلى درجة التوحيد» وهو توحيد الأفعال) انتهى «إتحاف»[1].

وقال في «تحفة المريد على جوهرة التوحيد»: (وقد أشار المصنف في المتن إلى أنّ في هذه المسألة ثلاثة مذاهب: مذهب أهل السنة: وهو أنه ليس للعبد في أفعاله الاختياريّة إلّا الكسب فليس مجبورًا كما تقول الجَبْرية، وليس خالقًا لها كما تقول المعتزلة.

ومذهب الجَبْرية: وهو أنّ العبد ليس له كسب بل هو مجبور أي: مقهور كالريشة المعلّقة في الهواء تَقَلّبها الرّياح كيف شاءتْ.

ومذهب المعتزلة: وهو أن العبد خالق لأفعاله الاختيارية بقدرةٍ خلقها الله فيه ولقولهم: خلقها الله فيه لم يكفروا على الأصح، فالجَبْرية أَفْرطوا[2]، والمعتزلة فرَّطوا[3]، وتوسَّطَ أهلُ السنة، وخيرُ الأمور أوساطها فخَرَجَ مذهبُهم ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾)[4] انتهى.

قال شاعرهم مُورِدا على أهل السنة:

ما حيلة العبد والأقدار جارية * عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في اليَمِّ مكتوفا وقال له * إياك إياك أن تبتلّ بالماء

وأجابه بعض أهل السنة:

---

(١) «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» (١١/ ١٢٢).

(٢) أفرط في الأمر: جاوز فيه الحد. «مختار الصحاح» (ص ٢٣٧).

(٣) [ف ر ط]: فَرَّطَ في الأمر: قَصَّر فيه وضَيَّعه حتى فات. «مختار الصحاح» (ص ٢٣٧).

(٤) النحل: ٦٦.

إنّ حقه اللطفُ لم يَمْسَسْه من بلل * ولم يبالِ بتكتيف وإلقاء
وإن يكن قَدَرُ المولى بغرقته * فهو الغريق ولو أُلْقِيَ بصحراء).[1]

وقد قال الشعراني - قدس سره - في «اليواقيت» في ١٤٥: (وقد نظم بعض اليهود أبياتا وأرسلها للشيخ صدر الدين القونوي[2]، وطلب الجواب عنها، فأجابه الشيخ - رحمه الله - وهي:

أيا علماءَ الدين ذمي دينكم * تحير دلوه بأوضح حجةِ
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم * ولم يَرْضَه مني فما وجه حيلتي
دعاني وسد الباب دوني فهل إلى * الدخول سبيل بينوا لي قضيتي
قضى بضلالي ثم قال اِرْضَ بالقضا * فها أنا راض بالذي فيه شِقْوَتي
فإن كنت بالمقضي يا قوم راضيا * فربي لا يرضى شُؤْمَ بَلِيَّتِي
وهل لي رضا ما ليس يرضاه سيّدي * وقد حرت دُلُّوني على كشف حِيرَتي.
إذا شاء ربّي الكفر منّي مشيئة * فها[3] أنا راض[4] باتباع المشيئة
وهل لي اختيار أن أخالف حكمه * فبالله فاشفوا بالبراهين علّتي

فأجابه الشيخ - رحمه الله تعالى - بقوله:

---

(١) «تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد» (ص ١١٩-١١٧).

(٢) في الأصل: «القنوي». محمد بن إسحاق الشيخ الزاهد صدر الدين القونوي، (ت ٦٧٣ هـ)، صاحب التصانيف في التصوف، «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٤٥).

(٣) وفي الهامش: فهل.

(٤) وفي الهامش: عاص.

صدقتَ قضى الرب الحكيم بكل ما * يكون وما قد كان وفق المشيئة
وهذا إذا حققته متأمّلًا * فليس يسد الباب من بعد دعوة
لأن من المعلوم أنّ قضائه * بأمر على تعليقه بشريطة
يجوز ولا يأباه عقل كما ترى * حدوث أمور بعد أخرى تَأَدَّتِ
كما الريّ بعد الشرب والشبع الذي * يكون عقيب الأكل في كلّ مرّة
فليس ببدع أن يكون معلّقا * قضاء إله الخلق ربّ البرية
بكفرك مهما كنت بالكفر راضيًا * تعاطي أسبابَ الهدى مع مُكْنَة
فمن جملة الأسباب مما رفضته * مع الأمن والإيمان لفظ الشهادة
فأنت كمن لا يأكل الدهر قائلا * أموت بجوعي إذ قضى لي بِجَوْعَةِ

انتهى فليتأمل الجواب، ومن فتح الله عليه بجواب[1] أوضح منه فليلحقه

---

(١) وفي الهامش: وأجاب العارف النابلسي رحمه الله تعالى بقوله:

دلّلناك يا من أنت ذمي ديننا * فلا تتحير واسمع لمقالتي
نعم قضى ربي بكفرك عندنا * ولم يرضه لكن قضى بالإرادة
كقاض بقصد قد قضى بجناية * عليك ولا يرضى بتلك الجناية
فإن قبيح الفعل لم يرض عاقل * به والقضاء حق شريف المزية
وما فعل القاضي قبيحا وإنما * فعلت قبيحا أنت بين البرية
فألزمك الرحمن أن ترضى بالقضا * لا ترض بالمقضي فافهم طريقتي
فإن كان خيرا ما قضى كان راضيا * وإن كان شرا ليس يرضى بشره
قضى بضلال فيك وهل يضل من * يشآء ويهدي من يشاء لحكمة

بهذا الموضع، وقد تقدم في مبحث خلق الأفعال أن هذه المسألة من أشكل الأمور، فراجعه والله أعلم) انتهى.[1]. فآه[2] ثم آه ألف آهـ دون مرة.

قال في «تقريب الأصول لتسهيل الوصول» في ١٥٥: (حاصل هذا الجواب: أنّ ذلك بقضاء الله لكن قضاء الله منه ما هو مُعلَّقٌ[3]، وما هو مُبْرَم[4]، فكفر الكافر لا يعلم أنه مبرم إلاّ إذا مات على الكفر، وأما في مدة حياته فيحتمل أنه معلق بقاؤه بدوام رضاه به، وعدم تعاطي أسباب الخروج منه فإذا تعاطى أسباب الخروج منه بالنطق بالشهادتين انقطع بقاؤه كما أن

فكن بالقضا من ربك الحق راضيا * ولا ترض بالمقضي أي بالشقاوة
وشاء ربي أن تشاء لما يشا * فإن شئت عصيانا عصيت بجهالة
وما أنت مجبور وبك خالق * لك الاختيار المحض من غير مرية
وحيث اختار فيك ربنا * كباقي صفات مثل حول وقوة
فإنك مختار ولا جبر هاهنا * وكلفك المولى بأنواع كلفة
وما الشرط في المخلوق يقدر أنه * يخالف حكم الخالق المتثبت
فكن راضيا بالله ربا وبالنبي * نبيا وبالدين الحنيفي ملة

«شرح حزب البر المعروف بالحزب الكبير» (ص ١٣٨-١٣٩).

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ٢١٥).

(٢) لعلّه كلمة التفجّع، والله أعلم.

(٣) القضاء المعلق: وهو الذي في الصحف التي في أيدي الملائكة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٨-٣٩]. «شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر» (ص ٣).

(٤) القضاء المبرم: وهو القدر الأزليّ، وهو لا يتغيّر، كما قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]. «شفاء الضرر بفهم التوكّل والقضاء والقدر» (ص٣).

الجائع معلّقٌ دوامُ جُوعِه بعدم تعاطي أسباب الخروج منه بتناول الطعام انقطع جوعُه، والعبد لا اطلاع له على أنّ ذلك القضاء مبرم وقد أمر الشارع بتعاطي أسباب الخروج منه، وسهلها له فَعَلَيْه أن يفعلَ ما أمره الله به، ولا يحتجّ بأنّ ذلك بقضاء الله؛ لأنّه لم يعلم أنّه مقضي عليه إلّا بالنسبة لما مضى لا بالنسبة بالمستقبَل فقد قامتْ الحُجة عليه.

تكنْ مسلمًا مثلي ومثل معاشري * وتلحَقْ بنا أهل الكمال الأئمة
وإلاّ فَدُمْ في الكفر والشرك والرَّدَى * تؤدي الخَراج[1] الحتم من بعد جزية
حقيرًا ذليلًا إن أبيت تخطفت * [حَشَاكَ حِداد السُّمر والمشرفية][2]
وهذا جوابي أحمد الله بعده * وأهدي إلى المختار أسنى تحيّة
وقد قاله العبد الغني بربه * تبارك لا بالنفس تلك الفقيرة
ورضوان ربي وجل عن آل محمد * وأصحابه جميعًا وبالخير تمت)

انتهى، ولم يبق له عذر، ولله الحُجّة البالغة.

ومذهب أهل السنة والجماعة أنّ الإرادة غيرُ الأمر والرضا فكلّ مأمور به فهو مرضيٌّ عند الله لكنّه قد يكون مراد الله، وقد يكون غير مراده، فما كان مراد الله وقع، وما كان غير مراد لا يقع، والمنهي عنه غير مرضي عند الله ثم إنّه إن كان هذا المنهي عنه مراد الله تعالى وقوعه من العبد وقع، وإن كان غير مراد لا يقع، ويترتب على فعل المأمور به الثواب، وهو معنى الرضا،

(١) «الخراج»: الضريبة المفروضة على البلاد التي فتحت صلحًا.
(٢) «السمر»: الرمح المشرفية سيوف منسوبة إلى «المشارف» وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف.

وعلى فعل المنهي عنه العقاب، وهو معنى عدم الرّضا، والخالق للمأمور به، والمنهي عنه هو الله وحدَه، وليس للعبدِ إلا مجرّد الكسب، وهو[1] تعلّق قدرته بالشيء المخلوق لله، وجعل الله هذا الكسبَ مَناط الثواب والعقابِ و﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[2]؛ لأنّ الكلّ مُلكه يتصرف فيه كيف يشاء.

الكسب مناط التكليف

فإذا تحقق أنّ الأمور كلّها بخلق الله، ومشيئته، وإرادته، وأنّ الله تعالى كلّف العبد، وجعل كسبَه مناطَ التكليف، فعلى العبد التوجه إلى الكسب كما يتوجه لكسب الأكل، والشربِ، وبقية مصالحه.

وقد أجرى الله العادة بحصول ذلك فقول السائل: (دعاني وسَدَّ الباب دوني) كلامٌ باطل فإنّ الله تعالى دعاه وفتح له الباب وجعل له الأسباب، ولم يمنعه من ذلك إلّا رضاه بالكفر وعدم توجهه لتعاطي كسب أسباب الخروج من الكفر فعليه أن يتوجّه إلى الله بكليّته ليُسَهِّلَ له الأسباب التي يحصل بها كسبه لما يوصله إلى قربه؛ لأنّ الأشياءَ كلّها مُسْتَمَدَّةٌ من فضله - سبحانه وتعالى - قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

فعليك بالالتجاء إلى الله تعالى مع التبرّي من حولك، وقوّتك، والتمسكِ بحول الله، وقوّته.

---

(١) وفي الهامش: كسب.

(٢) الأنبياء: ٢٣.

(٣) النور: ٢١.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (١) فالإقبال على الله بالذُّلِّ، والافتقار هو الأصل لكلّ خيرٍ) انتهى(٢).

المكالمة الواقعة بين عبد الجبار من المعتزلة وأبي إسحاق من أهل السنة

قال في «الإتحاف» شرح «الإحياء» (٢/ ١٧٧): (حُكِيَ أنّ القاضي عبد الجبار الهمداني(٣) أحد شيوخ المعتزلة دخل على الصاحب بن عباد(٤)، وعنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني أحدُ أئمة أهل السنة، فلمّا رأى الأستاذَ قال: (سبحان من تنزه عن الفحشاء) فقال الأستاذ فورا: (سبحان من لا يقع في مُلكه إلّا ما يشاء) فقال القاضي: (أيشاء ربنا أن يعصى؟) قال الأستاذ (أيعصى ربنا قهرًا؟) فقال القاضي: (أرأيت إن مَنَعني الهدى، وقضى عليّ بالرَّدَى أحسن إليّ أم أُسِيءَ؟) فقال الأستاذ:(إن منعك ما هو لك فقد

---

(١) الحجر: ٢١.

(٢) «تقريب الأصول لتسهيل الوصول» (ص ٢٧٠-٢٧١).

(٣) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني، الاسترابادي، (٣٥٩ - ٤١٥ هـ / ٩٧٠ - ١٠٢٥ م)، من مؤلفاته: تفسير القرآن، دلائل النبوة في مجلدين، طبقات المعتزلة، «معجم المؤلفين» (٥/ ٧٨).

(٤) الصاحب بن عباد، أبو القاسم إسماعيل بن عباد، (٣٢٦ - ٣٨٥هـ / ٩٣٨ - ٩٩٥م)، فإنه كان غزير الفضل، متفنِّناً في العلوم، أخذ عن أبي الحسين بن فارس، وأبي الفضل بن العميد. ويحكى أنه لما رجع من بغداد دخل على الأستاذ أبي الفضل بن العميد، فقال له: كيف وجدت بغداد؟ قال: بغداد في البلاد، مثل الأستاذ في العباد. وصنف تصانيف كثيرة: كـ«الوقف والابتداء»، والعروض، و«جوهرة الجمهرة». «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» (ص ٢٣٨).

أسآء، وإن منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء) فبُهِتَ القاضي، وعلى هذا قول أحد الزنادقة:

أيا علماءَ الدين ذِمِّي دينكم * تحير دَلْوُه بأوضح حجة)

انتهى[1].

ومن جملة ذلك جواب العلامة محمد بن أسعد[2] تلميذ القاضي البيضاوي أورد ابن الهُمام[3] في «المسَايَرَة»، وفيه بيتان:

فمعنى قضا بالكفر علمه * بعلمٍ قديمٍ سِرَّ ما في الجِبِلَّة

وإظهاره من بعد ذلك مطابقا * لإدراكه بالقدرة الأزلية)[4]

معنى القضآء

وحاصله: أنّ معنى قضائه تعالى علمه الأشياء أزلًا بعلمه القديم.

معنى القدر

ومعنى قدره إظهاره أي: إيجاده تعالى بقدرته الأزلية ما تعلّق علمه بوجوده على الوجه المطابق لتعلّق العلم بوجوده، والله أعلم.

---

(١) «المسايرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة» (ص ٧٤).

(٢) محمد بن أسعد التستري، (٠٠٠ - ٧٣٢ هـ/ ٠٠٠ - ١٣٣٢ م)، من مؤلفاته: «حل عقد مطالع الأنوار في المنطق»، «شرح الغاية القصوى في دراية الفتوى» للبيضاوي في فروع الفقه الشافعي، «وشرح الإشارات» لابن سينا في المنطق. «معجم المؤلفين» (٩/ ٤٧).

(٣) محمد بن عبد الواحد الكمال ابن الهمام السيواسي الأصل ثم القاهري الحنفي، (٧٩٠ - ٨٦١ هـ/ ١٣٨٨ - ١٤٥٧ م)، قال بعضهم في حقه لو طلبت حجج الدين ما كان في بلدنا من يقوم بها غيره. «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (٢ / ٢٠٢).

(٤) «المسايرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة» (ص ٧٤).

القضاء على قسمين

نكتة جميلة عن «مكتوبات» الإمام الرباني في ١٨٩ ما نصها: (اعلم - أيّدك الله تعالى - أنّ القضاءَ على قسمين: قضاءٍ معلّقٍ، وقضاءٍ مُبرمٍ، واحتمال التبديل، والتغيير إنّما هو في القضاء المعلّق، وأما القضاء المبرم فلا مَجال فيه للتبديل، والتغيير، قال الله - ﷻ -: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾[1] هذا في القضاء المبرم.

القضاء المعلَّق على نوعين

وقال في القضاء المعلّق: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

قال حَضْرَة قِبْلَتِي - قُدّس سرّه - يعني شيخَه كتب حضرةُ السيّد محي الدين عبد القادر الجيلاني[3] - قدس سره - في بعض رسائله: لا مجال في تبديل القضاء المبرم إلّا لي، فإنّي أتصرف فيه أيضًا إن أردتُ ذلك، وكثيرا ما كان يتعجّب من هذا الكلام، ويستبعده، وكان هذا النقل مدة مديدة في خَزانة ذِهن هذا الفقير إلى أنْ شَرَّفَني الله - سبحانه - بهذه الدولة العظمى حيث كنتُ يومًا في صددِ دفع بليةٍ متوجهةٍ إلى بعض الأحبة، وكان لي في ذلك الوقت الْتجاء، وتضرّع، وابتهال، وخشوع تام إلى الله تعالى فظهر أنّ قضاء هذا الأمر ليس بمُعَلَّق بأمر آخر في اللوح المحفوظ، ولا بمشروط بشرط،

---

(١) ق: ٢٩.

(٢) الرعد: ٣٩.

(٣) عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني، (٤٧١ - ٥٦١هـ/ ١٠٧٨ - ١١٦٦ م)، مؤسس الطريقة القادرية. من مؤلفاته: «الغنية لطالب طريق الحق» - ط و«الفتح الرباني» - ط و«فتوح الغيب» - ط. «الأعلام» (٤ / ٤٧).

فحصل بعد هذا نوع بأسٌ، وحرمان فخَطَرَ في ذلك الوقت قولُ السيد عبد القادر الجيلاني - قُدّس سرّه - فالتجأت إليه تعالى وتضرعت مرة، وتوجهت إليه سالكًا طريق إظهار العجز، والانكسار، فأظهر الله - سبحانه - بأنّ القضاء المعلّق على نوعين: قضاء ظهر تعليقه في اللوح المحفوظ، وأطلع عليه[١] الملائكةَ، وقضاء تعليقه عند الحق سبحانه فقط، وهو على صورة القضاء المبرم في اللوح المحفوظ.

وفي القسم الأخير من القضاء المعلّق احتمال التبديل مثل الأول فصار معلومًا من هنا لك أن كلام السيد الجيلاني مصروف إلى القسم الأخير الذي له صورة القضاء المبرم لا إلى قضاء هو مبرم حقيقة فإنّ التصرّف والتبديل فيه محالان شرعًا، وعقلًا كما لا يخفى.

والحق أنّ لأفراد قليلة إطّلاعًا على حقيقة ذلك، فكيف التصرّف هناك، ووجدت البليّة المتوجّهة إلى الأخ المذكور من القسم الأخير، وصار معلوما[٢] أنّ الله سبحانه دفعها عنه، والحمد لله سبحانه على ذلك حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، مباركًا عليه، كما يحبّ ويرضى) انتهى[٣].

تذنيب: بما له تعلّقٌ بما ذكر، قال العلامة الشيخ محمد أمين الكُرْدِيّ النقشبنديّ[٤] في «العهود الوثيقة في التمسك بالشريعة والحقيقة»

(١) في الأصل: كلمة «عليه» محذوفة.

(٢) وفي الهامش: ما أعظم شأن الإمام الرباني قدس سره.

(٣) «المكتوبات الربانية» (١ / ٤٠٧-٤٠٦).

(٤) محمد أمين بن فتح الله الإربلي الكردي (٠٠٠ - ١٣٣٢ هـ/ ٠٠٠ - ١٩١٤م)، من مؤلفاته: هداية الطالبين لأحكام الدين - ط في فقه المالكية، وإرشاد المحتاج إلى حقوق الأزواج - ط، وتنوير القلوب - ط، تصوف، «الأعلام» (٦ / ٦٣).

ما نصه: (اعلم أنّ السعيد هو من علم الله تعالى في الأزل موتَه على الإسلام، وإن تقدّم منه كفرٌ، والشقيَّ هو من عَلِم الله تعالى في الأزل موتَه على الكفر، وإن تقدّم منه إسلام، فالسعادة: الموت على الإسلام، والشقاء: الموت على الكفر، المقدّران للعبد في الأزل فليس كل من السعادة، والشقاوة باعتبار الوصف القائم به في الحال من الإسلام في الأوّل، والكفر في الثاني بل باعتبار ما سبق أزلًا في علمه تعالى كما علمتَ، وعلى ذلك فلا يتصور في السعيد أنْ يشقى، ولا في الشقيّ أن يسعد فلا يتحوّل السعيد، والشقي عما ختم له فالسعيد لا ينقلب شقيا[1]

---

(١) وفي الهامش: وكذلك يجد أرباب هذا المقام العالي أفعال المخلوقات كالميت والجماد لا أنهم ينسبون أفعالهم إلى الحق سبحانه ويقولون: إنّ فاعل هذه الأفعال هو الله - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - مثلا، إذا حرك شخص حجرا لا يقال: إنّ هذا الشخص متحرّك بل هو موجد للحركة في الحجر والمتحرِّك إنما هو الحجر، وكما أن الحجر جماد محضٌ كذلك حركة جماد صِرْف فإن هَلَك -بتلك الحركة فرضا- شخصٌ لا يقال: إنه قتله حجر بل يقال: قتله ذلك الشخص الذي حرّك الحجر، وقول علماء الشريعة (شكر الله سعيكم) موافق لهذا العلم فإنهم يقولون: إنّ مفعول المخلوقات مصنوعُ الحق سبحانه، مع وجود صدور الأفعال عنهم بالإرادة والاختيار ولا مَدخَل لأفعالهم في مصنوعيّته، وأفعالُهم عبارة عن حركات شتى من غير أن يكون لها تأثيرٌ في مجعوليّة المعمول، فإن قيل: فعلى هذا يكون جعل أفعالهم مناطًا للثواب، والعقاب غيرَ معقول ويكون كتكليف حجرٍ بأمرٍ، وترتيبِ ذمٍّ ومدحٍ على فِعله.

قلت: فرقٌ بين الحجر والمكلفين فإنّ مَناط التكليف القدرةُ والإرادةُ والحجرُ لا قدرةَ فيه، ولا إرادةَ بخلاف المكلّفين، فإنّ فيهم إرادة، ولكن لما كان إرادتهم أيضا مخلوقَةً للحق سبحانه من غير تأثير لها في حصول المراد، كانتْ تلك الإرادة أيضا كالميّت، وفائدتُها إنما هي كون المراد مخلوقًا بعد تحققها بطريق جري العادة، ولو قيل: إن قدرة المخلوق مؤثرة ولو في الجملة كما ذهب إليه علماء ما ورآء النهر فذلك التأثير أيضا مخلوقٌ فيها كما هي مخلوقةٌ بنفسها ففي تأثيرها لا اختيار له أصلا فيكون تأثيرها أيضا كالجماد مثلا أيضا إذا رأى شخص حجرا نازلا من فوق بتحريك محرك وأهلك حيوانا فكما أن ذلك الشخص يعتقد أن هذا

وبالعكس، وإلا لزم انقلاب العلم جهلا، وتبدل الإيمان كفرا، وعكسه، وهو بديهي الاستحالة.

الخاتمة تدلّ على السابقة

فالخاتمة تدل على المسابقة فإنْ ختم له بالإسلام دلّ على أنّه في الأزل كان من السعداء، وإن تقدّم منه كفر، وإن ختم له بالكفر، والعياذ بالله دلّ على أنّه في الأزل كان من الأشقياء، وإن تقدّم منه إسلام، ولذا قال بعضهم:

إذا المرأ لم يخلق سعيدا تخلفت * ظنون مربيه وخاب المؤمل
فموسى الذي ربّاه جبريل كافر * وموسى الذي ربّاه فرعون مرسلُ

وقد يسّر الله - ﷻ - كلًّا من السعيد، والشقيّ لما خلق له فيسّر السعيد بفضله للإيمان، وللطاعات، ويسّر الشقي بعدله للكفر والمعاصي قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)﴾[1].

وأخرج مسلم عن جابر[2] أنّ سراقة[3] بن مالك بن جعشم قال: يا رسول

الحجر جماد كذلك يعتقد أن فعله الذي حركته جماد ويعتقد أن الأثر المترتب لذلك الفعل أعني الهلاك أيضا جماد، فالذوات والصفات والأفعال كلّها جمادات محضة وأموات صرفة فهو الحق القيوم وهو السميع البصير وهو العليم الخبير. ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ من المكتوب الثامن عشر للإمام الربّاني في (ص ٢٨).

(١) الليل: ٥-١٠.

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاريّ السّلميّ، ٧٨هـ، «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١ / ٣١٩). «الأعلام» (٢ / ١٠٤).

(٣) سراقة بن مالك بن جعشم المدني، المذكور في حديث الهجرة، ٢٤ هـ «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١ / ١٨١).

الله بيّنْ لنا ديننا كأنّا خُلِقنا الآن ففيم العمل فيما جَفّتْ به الأقلام، وجرتْ به المقادير أم فيما يُسْتَقْبَل قال فيما جَفّت به الأقلام، وجرتْ به الأقدار، قال: ففيم العمل قال: «اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلق له، وكُلٌّ عَامِلٌ بعَمَلِه»[١].

المراد من قوله تعالى كل يوم هو في شأن

وأما قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٢] فالمراد شؤون لا يبتديها، ذكر صاحب «الكشاف»[٣] (أنّ عبد الله بن طاهر[٤] قال للحسين بن الفضل[٥] أَشْكَلَ عَلَيَّ قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٦] مع ما صح أن القلم جفّ بما هو كائنٌ إلى يوم القيمة، فقال الحسين هو شؤون يبديها أي: يظهرها على وفق قضائه في الأزل لا شؤون يبتديها أي: يُنْشِأُها الآن؛ لأن التقدير سابق، فقام عبد الله وقَبَّل رأسَ حسين)[٧]، وذكر بعض العلماء أن ابن الجوزي[٨] جلس يومًا على كُرْسِيّ وَعْظِه، فذكر الآية

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٤٨).

(٢) الرحمن: ٢٩.

(٣) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، أخذ النحو عن أبي مضر منصور، وصنف التصانيف البديعة: منها: «الكشاف» و «المحاجاة بالمسائل النحوية» و «المفرد والمركب». «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» (٥/ ١٦٨).

(٤) عبد الله بن طاهر بن حاتم الطائي، ٣٣٠هـ. «طبقات الصوفية» (ص ٢٩٥).

(٥) الحسين بن الفضل بن عمير البجلي، ١٧٨ - ٢٨٢ هـ، «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤١٤)، «الأعلام» (٢/ ٢٥٢).

(٦) الرحمن: ٢٩.

(٧) «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» (٤/ ٤٤٨).

(٨) جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، سمع من أبي القاسم بن الحصين، ٥١٠-٥٩٧هـ، من مؤلفاته: «المغني كبير»، و «تذكرة الأريب». «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٤٥٥).

فوقف رجل على رأسه، وقال: فما يفعل ربّك الآن فسكت، وبات مهمومًا فرأى المصطفى - ﷺ - فسأله فقال له: إنّ السائل هو الخَضِر، وسيعود إليك فقُلْ له شؤون يبديها، ولا يبتديها يَخْفَض أقواما، ويرفع آخرين، فأتاه فسأله فأجابه به فقال له: صَلِّ على من عَلَّمَكَ) انتهى[1].

السعادة والشقاوة عند الأشاعرة

قال في «تحفة المريد على جوهرة»:

فَوْزُ السَّعيد عِندَه في الأَزَل * كذا الشقيّ ثمّ لَمْ يَنْتَقِل

والتقدير «فوز السعيد» مقدّر في الأزل حالَ كونه سابقًا عنده تعالى في علمه، وقوله : «كذا الشقيّ» أي: شقاؤه عنده في الأزل مثل فوز السعيد فليس كل من فوز السعيد، وشقاء الشقي باعتبار الوصف القائم به في الحال من الإيمان في الأول، والكفر في الثاني بل باعتبار ما سبق أزلًا في علمه، فالسعيد لا يَنْقَلب شقيّا، وبالعكس، وإلا لزم انقلاب العلم جهلًا، وهو بَدِيهِيّ الاستحالة، فالسّعادة والشّقاوة مقدرتان في الأزل لا يتغيّران، ولا يتبدّلان؛ لأنّ السعادة: هي الموت على الإيمان باعتبار تعلّق علمِ الله أزلًا بذلك، والشقاوةَ: هي الموت على الكفر بذلك الاعتبار.

فالخاتمة تدلّ على السابقة، فإنْ ختم له بالإيمان دلّ على أنّه في الأزل كان من السُّعداء، وإن تقدّمه كفر، وإن ختم له بالكفر دلّ على أنّه في الأزل كان من الأشقياء، وإن تقدّمه إيمان، كما يدلّ عليه حديث الصحيحين: «إنَّ

---

(١) «تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب» (ص ١٢١-١١٩).

أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»)[1]. انتهى.

خوف العامة، وخوف الخاصة

وخوف العامة من الخاتمة، وخوف الخاصة من السابقة، وهو أشدّ، وإن تلازَمَا، هذا ما ذهب إليه الأشاعرة.

السعادة والشقاوة عند الماتريدية

وذهبت الماتريدية إلى أنّ السعادة هي الإيمان في الحال، وإذا مات على الإيمان فقد انقلَبَ سعيدا، وإذا مات على الكفر فقد انقلب شقيّا بعد أن كان سعيدًا، والشقي هو الكافر في الحال، وإذا مات على الإيمان فقد انقلب سعيدا بعد أن كان شقيا إلخ.

وبالجملة فالخلاف بين الأشاعرة، والمارتيدية لفظيّ؛ لأنهم اختلفوا في المراد من لفظ السعادة، ولفظ الشقاوة مع الاتفاق في الأحكام) انتهى ع[2].

وقول «العهود» (فلا يتحوّل السعيد، والشقي عما ختم له) إلخ، وكذا قول «التحفة على الجوهرة»: (السعادة، والسقاوة لا يتغيران، ولا يتبدلان) إلخ، لا يناقض، ولا ينافي ما سنقرّره عن «الفتوحات»، وغيرها من أنّ

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٤٣).

(٢) «تحفة المريد على جوهرة التوحيد» ص (١١٧ - ١١٥).

التحويل[1]، والتبديل واقعان ليلاً، ونهارًا لحظةً، ولحظةً؛ لأنّ نفس ذلك أيضًا من الأمور السوابق التي يُبديها وَفْقَ علمِه الأزلي، وقضائِه السابق، فلم يصر العلمُ جهلًا، ولا الإيمان كفرًا فلا تناقض، ولا منافاتَ بينهما.

وبعبارة أخرى أنّ المراد من السعادة، والشقاوة هو معنى الحسنات، والسيئات فكما أن الحسنات يذهبن السيئات كذلك السعادة تُذهب الشقاوة كما هو صريح قول النبي - ﷺ -: «السعيد قد يشقى، والشقيّ قد يَسعَد»[2]، وكما يدلّ عليه أيضا قوله - ﷺ -: «كلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاه[3] يُهَوِّدَانِه أو يُنَصِّرَانه أو يُمَجِّسَانه»[4]، فهذا الحديث أيضًا صريحٌ في أنّ التبديل يكون بالتربية، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾[5] إلخ[6].

فالحاصل[7] أنّه إذا غلبتِ الحسنات يكون سعيدا، وعكسه شقيًّا، وأمّا المقدور في الأزل من كل منهما لكل أحد كما في الحديث: «السَّعِيدُ سَعِيدٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ والشَّقِيُّ شَقِيٌّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»[8]، فليس لأحد البحث فيه؛ لأنّه مِن سرّ القدر، فكَمْ مِنْ مرّة قد مرّ منّا عن الأئمة أنّه لا يجوز لأحدٍ أنْ يتكلّم،

---

(١) وفي الهامش: التحويل والتبديل واقعان ليلا ونهارا لحظة ولحظة وفقا لعلمه الأزلي ووِزانا بما جفّ به القلم وإبداءً لما في قضائه السابق لا ابتدآءً الآن.

(٢) «روح البيان» ص ١٥٤. بعد طول البحث لم نعثر على هذا الحديث إلاّ في هذا الكتاب.

(٣) وفي المخطوطة: «ولكن».

(٤) «صحيح البخاري» (١٣٥٨).

(٥) الأنعام: ١١٠.

(٦) وفي المخطوطة هنا كلمة مطموسة.

(٧) وفي الهامش: فالحاصل أنّه إذا غلبتِ الحسنات يكون سعيدا وعكسه شقيا.

(٨) «المعجم الأوسط» (٣/ ١٠٧).

ويحتجّ بسرّ القدر، ومن قال غير هذا فقد ضلّ؛ لأنه خلاف نصوص القرآن المجيد: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[1] ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[2] ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3] ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[4] مُحْضَرًا.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[5] وهُنا اختصرنا الكلامَ في السعادة، والشقاوة، فلنرجع إلى الأصل.

العبدُ هو الذي ظَلَم نفسَه

فعبارة الشعراني - ﷺ - في «اليواقيت» في ١٣٨: (قلتُ: فحاصل هذا البحث: أنّ العبدَ هو الذي ظَلَم نفسَه تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[6] فإنّه تعالى لا يُخبر إلاّ بالواقع.

ولما عَلِم أهلُ الله تعالى ذلك طَلَبوا وجهًا حقيقيًّا يُقيمون به الحجة لله تعالى على أنفسهم، فنظروا بالكشف الصحيح فرَأَوْا جميعَ أفعالهم هي معلوم علم الله تعالى، وكما لا افتتاح لعلم الله تعالى لا افتتاح لمعلومه، وإذا كان لا افتتاح لمعلومه فالحق تعالى لم يَظْلِمْنا شيئًا.

---

(١) فصلت: ٤٦.

(٢) غافر: ١٧.

(٣) النجم: ٣٩.

(٤) البقرة: ١١٠.

(٥) الجاثية: ٦.

(٦) النحل: ١١٨.

سبب قول المعتزلة: العبد يخلق أفعال نفسه

ولعلّ المعتزلة لو اطّلعوا على هذا الوجه الذي قرّرناه ما وقعوا في قولهم: (إن العبد يخلق أفعال نفسه) فإنّهم رأوا بعُقُولِهم أنّهم إذا جَعَلوا الفعل لله تعالى وحدَه خلقًا ثم عاقبَهم عليه كان ذلك غير العدل، فلمّا خافوا من إضافة ذلك إلى الحقّ قالوا: جَعْلُنا أن العبد يخلُقُ أفعال نفسه أَخَفُّ من نسبة الظُّلم إلى الحق من باب الإضافة والمجاز لا من باب الحقيقة.

مثل الإمام الزمخشري لا يعتقد أنّه يخلق أفعالَ نفسه حقيقةً أبدًا

فإنّ مثل الإمام الزمخشري[1] لا يعتقد أنه يخلق أفعال نفسه حقيقةً أبدا، بل اليهودُ أنفسهم لا يعتقدون ذلك.

ثم إنّ القول في جزاء الأعمال يومَ القيمة كالقول في الأعمال نفسها، فلو قال قائل لله: (لِمَ تعذّبني على ما ليس من خَلْقي؟) فقال له الحق تعالى: (وهل تعلّق عِلْمي بك إلّا مُعَاقَبًا على أعمالك)، فلا يسع العبد إلا أن يقول: (نعم، ما تعلق علمك بي إلا معاقبا)، وهناك يُقيم العبد الحجة على نفسه يقينًا، وكشفًا.

وهذا المَنزَع الذي ذكرتُه لم أر له ذائقًا من أهل عصري، فعُلِم أنّ الجبْرية، وغيرَهم ما وقعوا فيما وقعوا فيه إلّا مِنْ شهودهم وجهَ حدوث العبد، وكونَه مخلوقًا، ولو أنهم شَهِدوا الوجه الآخر، وهو كونه قديمًا

(١) «تاريخ بغداد وذيوله» (٢١/ ١٧٢).

في العلـم الإلهـيّ.. لَأَقامـوا الحجـةَ علـى أنفسـهم، فليتأمـل فإنّـه محـلّ ينفلـتُ عـن الذهـن، والله تعالـى أعلـم) انتهـى[1].

وعبارتـه - ﷺ - في «المكتوبـات» بعـد كلام مبسـوط في ٣٣١: (فنقـول في تحقيـق هـذا الـكلام، - والله سبحانه أعلـم بحقيقـة المـرام - أنّ الاختيـار لـو لـم يكـن ثابتًـا للعبـد حقيقـةً كمـا هـو مذهـب الأشـعري لَمـا نسـب الله تعالـى الظلـمَ إلـى العِبـاد؛ إذ لا اختيـار لهـم، ولا تأثيـر لقدرتهـم، وإنّمـا هـي مَـدار محـض عنـده، وقـد نسـب الله سبحانه الظلـمَ إليهـم في غيـرِ موضـع مـن كتابـه المجيـد، ومجـرد المَداريّـة بـدون التأثيـر، ولـو في الجملـة لا يوجـب الظلـم فيهـم.

نعـم إنّ التعذيـب، والإيـلامَ للعِبـاد منـه تعالـى مـن غيـر أن يكـون الاختيـار ثابتًـا لهـم ليـس بظلـم أصـلًا؛ إذ هـو سبحانه مالـكٌ علـى الإطـلاق يتصـرّف في مُلكـه كيـف يشـاء.

أمـا نسـبة الظلـم إليهـم فمسـتلزم لثبـوت الاختيـار لهـم، واحتمـالُ المجـاز في هـذه النسـبة خـلاف المتبـادر، فـلا يرتكـب مـن غيـر ضـرورة) انتهـى[2].

وقـال - قـدس سـره - فيهـا في ٢٦٧: (وقـد أعطـى الحـقّ سبحانه عبـادَه قـدرة، وإرادة يكتسـبون بهمـا الأفعـال باختيارهـم فخَلْـقُ الأفعـال[3] منسـوبٌ إلـى الله سـبحانه، وكسـبُها إلـى العبـاد.

وعـادة الله سـبحانه جاريـة علـى أنّ العبـد إذا قَصَـدَ فعـل شـيء مـن أفعالـه،

---

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) «المكتوبات الربانية» (٢/ ١٦٥).

(٣) وفي الهامش: وراجع إلى كتاب «أساس الدين» في (ص ٨).

وتشبّث بأسبابه يتعلق بذلك الفعل خَلقُه - ﷻ - فإذا كان صدور الفعل من العبد بقصده، واختيارِه يكون مُتَعَلَّقَ المدح، والذمّ، والثواب، والعقاب بالضرورة.

وما قيل: إنّ اختيار العبد ضعيف، فإن كان المراد به أنّه ضعيف بالنسبة إلى إرادة الله تعالى فمُسَلَّمٌ، وإن كان أنّه غير كاف في أداء الفعل المأمور به فغيرُ صحيح، فإنّ الله سبحانه لا يكلّف بما ليس في وُسْعه بل يريد اليُسر، ولا يريد العُسر) انتهى[1].

وقال - قدس سره - فيها في ٣٣٠ ما نصّه: (اعلم أنّ أهل السنة، والجماعة آمَنُوا بالقدر خيره، وشرّه، وحُلْوه، ومُرّه من الله سبحانه؛ لأنّ معنى القدر هو الإحداث، والإيجاد، ومعلومٌ أنّ لا مُحدِث، ولا مُوجِد إلا الله سبحانه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾[2].

القضاء لا يسلب القدرة والاختيارَ عن العبد

والمعتزلة، والقدرية أَنْكَرُوا القضاء، والقدر، وزَعَمُوا أنّ أفعالَ العباد حاصلةٌ بقدرة العبد وحدَها، قالوا: (لو قضى الله الشرّ ثم عذّبهم على ذلك لكان ذلك جَوْرًا منه سبحانه)، وهذا جهلٌ منهم؛ لأنّ القضاءَ لا يسلُب القدرة، والاختيار عن العبد؛ لأنّه قضى بأنّ العبدَ يفعله أو يتركُه باختياره. غاية ما في الباب: أنه يُوجب الاختيارَ، وهو مُحقّق للاختيارِ لا مُنافٍ له) انتهى[3].

---

(١) «المكتوبات الربانية» (٢/ ٥٩).

(٢) الأنعام: ١٠٢.

(٣) «المكتوبات الربانية» (٢/ ١٦٤).

قال في «تحفة المريد»: (وبالجملة وليس للعبد تأثير فهو مجبورٌ باطنًا مختارٌ ظاهرًا، فإن قيل: إذا كان مجبورًا باطنا فلا معنى للاختيار الظاهريّ؛ لأنّ الله قد عَلِم وقوعَ الفعل فلا بدّ، وخَلَقَ في العبد القدرة عليه، وأُجيب بأنّه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1].

والصوفية يُشيرون للجَبْر كثيرًا، وحاشاهم من الجَبْر الظاهريّ، ومرادهم الجبر الباطني) انتهى ع. في ٥٧٣.

أجمع أهل الدنيا والسماء على الدعاء لله تعالى

وأما فائدة الدعاء إلى الله تعالى فلقد أجمع أهل الدنيا، والسماء من الموحّدين، والمسلمين، وأهل الملل، والأديان على الدعاء لله تعالى، وطلب المعونة، والإثباتِ على الطاعات، والهداية، والتوفيق للخيرات، والحَذَر، والعصمةِ عن المعاصي، وكَشْفِ ما بهم من الضَرر، والأذى، وإزالةِ ما عليهم من العِلَل، والأمراض، وتبديلِ ذلك بالعافية، والشِّفاء إلى غير ذلك مما لا يتناهى، امتثالًا بأمر الله تعالى بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2] الآية إلى غيرها من الآيات، والأحاديثِ اللاتي لا تكاد أن تُحصى، ولا يناقضه قولُ الخلائق (ما قدر الله كان، وما لم يُقدّر لم يكن).

وبعبارة أخرى: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لأنّ الذي قدّر السعادة مثلا قدّرها بسبب من الدعاء مثلا، والذي قدّر الشقاوة قدّر

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) البقرة: ١٨٦.

لدفعها سببًا من الدعاء مثلا، والقلوبُ بمشيئة الله تعالى يُقَلِّبُها كيف شاء، ساعةً من الخير إلى الشر، وساعةً من الشر إلى الخير كما نرى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1]، و﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، فلا يصح التقييد عليه بشيء يفعله من ممكن.

فالتحويل، والتبديل واقعان ليلًا، ونهارًا لحظةً، ولحظةً وَفْقًا لِعلمه الأزليّ، ووِزانًا بما جَفّ به القلم، وإبداءً لما في قضائه السابق، لا ابتداء بإنشائه الآن خلاف علمه الأزليّ.

فعبارة «الفتوحات» في (٢/ ٥٣١) نقلًا عن «الخازن»: (مذهب أهل السنة: أَنَّ المقادير سابقة، وقد جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فكيف يستقيم مع هذا المَحو، والإثبات.

قلت: المحو والإثبات مما جفّ به القلم، وسبق إليه القضاء)[4] انتهى.

وهذا منه كلام نفيس فخذه ناقلًا لك، فإنه يُغني لك عن كثير من الكلام.

من القضاء ردّ البلاء بالدعاء

وفي هامش «دلائل الخيرات» في ٣٠: (فإن قيل: إذا كان الحَذَرُ لا ينفع القدر، والقضاء لا مردّ له فما فائدة الدعاء.

---

(١) الرعد: ٣٩.

(٢) الرحمن: ٢٩.

(٣) المائدة: ١٢٠، هود: ٤، الروم: ٥٠، الشورى: ٩، الحديد: ٢، التغابن: ١، الملك: ١.

(٤) «لباب التأويل في معاني التنزيل» (٣/ ٢٤).

الجواب: أنّ من القضاء ردُّ البلاء، فيكون الدعاء سببًا لردّ البلاء، واستجلاب الرحمة كما أنّ التُرْس سبب لرد السهم، والماءَ سبب لخروج النبات من الأرض، وقد أَمَرَ الله باتخاذ آلةِ الحرب فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[1]، فكما أنّ الترس يَلْقَى السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء يلقى البلاء فيتعالجان، وليس من شروط الاعتراف بقضاء الله تعالى عدمُ حمل السلاح، فقد قال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[2] بل ربط الأسباب بالمسبَّبات هو القضاء الأوّل الذي هو كلمح البصر، وترتيب تفصيل المسببات على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدّر الخير قدّره بسبب، والذي قدّر الشر قدّر لدفعه سببًا فلا تناقض بين هذه الأمور) انتهى[3].

لا يترك الدعاء أبدًا استنادًا إلى السّوابق

وقال العارف الشَّعَراني - رضي الله عنه - في «الأنوار القدسية» في هامش منه فيه في ١٠: (أُخِذَ علينا العهد العام أنْ نُحسِنَ ظنَّنا في ربّنا، وأنّه يجيب دعاءَنا، ولا نترُكَ دعائَنا أبدًا استنادا إلى السوابق، فإنّ في ذلك تعطيلا للأوامر الشرعية، ولو تأمّل العبد وَجَدَ نفسَ دعائه من الأمور السوابق، ونحن نعلم من ربّنا - جل وعلا - أنّه يُحبّ من عبده إظهارَ الفاقة، والحاجة، ويُثيب عبدَه على ذلك، سواءٌ أعطاه أو منعه، وأكثر مَنْ بَخِل العمل بهذا العهد مَنْ سَلَكَ الطريق بغير شيخٍ فيترُكُ الوسائلَ، ويقول: (إنْ كان سَبَقَ لي قضاءُ

(١) الأنفال: ٦٠.
(٢) النساء: ٧١.
(٣) «نور الأنوار وكنز الأبرار في ذكر الصلاة على النبي المختار» (ص ٥٤).

هـذه الحاجـة فـلا حاجـة للدعـاء، وإن لـم يقسـم لـي قضـاء تلـك الحاجـة فـلا فائـدة في الدعـاء)، وقـد مكثـتُ أنـا في هـذا المقـام نحـوَ شـهرٍ ثـم أنقَـذَني منـه على يـد الشيخ محمـد الشـناوي[1] وفي القـرآن العظيـم: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[2].

فأخـبر أنّ العبـدَ مـن أَدَبِـه مـع الله أنْ يدعـوَه في كلّ شـدّة، ولا يُعَـوِّل علـى السّـوابق ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[3] والله يتولـى هُـدَاك) انتهـى[4].

وعبارة حجة الإسلام الغزالي فنصُّها: (فأما الدعاء فقد تعبّدنا به، وكثرة دَعَوَات رسـول الله - ﷺ - وسـائر الأنبيـاء - عليهـم السـلام - علـى مـا نقلنـاه في كتـاب الدعَوَات تَـدُلُّ عليـه، ولقـد كان رسـول الله - ﷺ - في أعلـى المقامـات مـن الرضـا، وقـد أثنـى الله على بعـض عِبـاده بقولـه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[5].

وأمـا إنـكارُ المعاصـي، وكراهتُهـا، وعـدم الرضـا بهـا فقـد تَعَبَّـدَ الله عبـادَه، وذمّهـم علـى الرضـا بهـا فقـال: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾[6]، وقـال تعالـى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[7]) انتهـى في (٤/ ١٥١)[8].

---

(١) «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» (١/ ٩٧).
(٢) الفرقان: ٧٧.
(٣) الأنعام: ٩٠.
(٤) «رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم» (١/ ١٤١).
(٥) الأنبياء: ٩٠.
(٦) يونس: ٧.
(٧) التوبة: ٩٣.
(٨) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٥١).

وعبارته في (٢/ ٢٥٣): (وبهذا يعرف أيضًا أنّ الدعاء بالمغفرة، والعصمةِ من المعاصي، وسائر الأسباب المُعينة على الدين غيرُ مناقضٍ للرضاء بقضاء الله، فإنّ الله تعبّد العِبادَ بالدعاء ليستخرج الدعاءُ منهم صفاءَ الذكر، وخشوعَ القلب، ورِقّة التضرع، ويكونَ ذلك جَلَاءً للقلب، ومفتاحًا للكشف، وسببًا لتواتر مَزَايَا اللطف، كما إنّ حملَ الكوز، وشُرْبَ الماء ليس مناقِضًا للرّضا بقضاء الله تعالى في العَطْش، وشربُ الماء طلبًا لإزالة العطش مباشرةُ سببٍ رَتَّبَه مسبِّبُ الأَسباب، فكذلك الدعاء سَبَبٌ رتّبه الله تعالى، وأَمَرَ به.

وقد ذكر أنّ التمسك بالأسباب جَرْيًا على سُنّة الله تعالى لا يناقض التوكّل، واستقصيناه في كتاب التوكّل)[1] انتهى.

وقال في المظهر شرح «المصابيح» قوله - عليه السلام -: (من قَدَر الله تعالى أيضا أي: هذه الأسباب من قدر الله أيضا يعني كما أنّ الله تعالى قدّر الداء قدّر زوالَ الداءِ بالدواء، والرُقْيَة، وكما أنّ الله تعالى خَلَقَ في العَدوّ قصد عدوه بالإيذاء خَلَقَ في الذي يقصده العدو أن يلتجأ إلى قَلعة، وأنْ يدفعه بشيء من الأسباب فكلّ من أصابه داء فتداوى وبرئ، فاعلمْ أنّه قدّر هذا الدواء نافعًا في ذلك الداء، وإذا لم يُقدّر الداء أن ينفعه التداوي لم ينتفع مداواة جميعِ أطباء العالم، وعلى هذا فَقِسْ جميعَ الأسباب) انتهى ع. من باب الإيمان بالقدر[2].

قال في «تقريب الأصول لتسهيل الوصول» في ٢٦: (قال ابن زكري[3] في

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٥٤).

(٢) «المفاتيح في شرح المصابيح» (٤/ ٣٥٤).

(٣) أحمد بن محمد بن زكري المانوي، التلمساني ابو العباس، (٠٠٠ - ٩٠٠ هـ/ ٠٠٠ - ١٤٩٥ م)، من مؤلفاته: «شرح الورقات» لإمام الحرمين في أصول الفقه، «بغية الطالب في شرح

شرح «الحكم»: وكل من تعاطى السببَ مع استحضار أنّ ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، فقد فرّ من الله إلى الله كما قال عمر بن الخطاب - ﷺ - :نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، قال ذلك حين أراد البعد عن محل الطاعون الذي كان بالشام، وقد قال له أبو عبيدة بن الجراح - ﷺ -: أَتَفِرُّ من قدر الله فقال: نعم، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله أي: لأنّ الموضعَ الذي فيه الطاعون إنما هو بقدر الله، والموضع الذي نفرّ إليه إنما هو أيضًا بقدر الله، فلم نخرج من قدر الله على كل حال؛ لأنّا نشاهد حولَ الله، وقوتَه لا حولَنا وقوتَنا) انتهى[1].

الرجل من يعارض الأقدار بالأقدار

وقال فيه أيضا في ١٩٩ : (والحاصل: أن الذي ينبغي للعبد التسليم لأقدار الله من غير مُعارَضَة بالطلب، والدعاء؛ لأنّه لا بد من وقوع قضائه، وقَدَره، وهذا إذا دعا معوَّلًا على الدعاء، أما إذا دعا امتثالًا لأمر الله بالدعاء بل عارض الأقدار بالأقدار، وهذا معنى قول سيدي عبد القادر الجيلاني - ﷺ- ليس الرجل من يُسَلِّمُ للأقدار إنما الرجل من يعارض الأقدار بالأقدار؛ لأنّه ربما كان القضاء معلّقًا على عدم دعائه أو دعائه له، فيدفع بالدعاء أو يحصل به، فيكون عَارَضَ قدرًا بقدر) انتهى[2].

قال الإمام الرباني - قدس سره - في (١/ ٢٦٦) من «مكتوباته» بعد

عقيدة ابن الحاجب»، «المنظومة الكبرى» في علم الكلام. «معجم المؤلفين» (٢/ ١٠٣).

(١) «تقريب الأصول لتسهيل الوصول» (ص ٤٤).

(٢) «تقريب الأصول لتسهيل الوصول» (ص ٢٩٣).

كلامٍ مبسوطٍ: (إنّ رفع الأسباب رفعُ الحكمة التي في ضمنها مصالح لا تحصى ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾[1]، كيف، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كانوا يُراعُون الأسباب، ومع تلك المراعات كانوا يُفوّضون أمورَهم إلى الحق - سبحانه وتعالى - كما قال يعقوب: - على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام - وصية لبنيه ملاحظا لإصابة العين. ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[2] الآية، ومع وجود هذه المراعات قال تَفويضًا لأمره إلى الله تعالى:﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[3]، واستصوَبَ - سبحانه - هذه المعرفة منه، واستحسنها، ونسبها إلى نفسه حيث قال بعد ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾[4] الآية.

وأشار الحق سبحانه في القرآن المجيد فيما خاطبَ به نبيّنا - ﷺ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

بقي الكلام في تأثير الأسباب، ويجوز أن يخلق الله - سبحانه - في بعض الأوقات تأثيرًا في الأسباب فتكون مؤثّرة، ويجور أن لا يخلق التأثيرَ فيها في بعض الأوقات، فلا يترتّب عليها أثر أصلًا بالضرورة، كما أنّا نُشاهد هذا المعنى، فإنّ بعض الأسباب يترتّب عليها وجود المسبّبات أحيانًا، وفي بعض الأوقات لا يظهر منها أثرمًا أصلًا، فالإنكار على تأثير الأسباب

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) يوسف: ٦٧.

(٣) يوسف: ٦٧.

(٤) يوسف: ٦٨.

(٥) الأنفال: ٦٤.

مطلقًا مُكابَرَةٌ، ينبغي أن يقول بالتأثير، وينبغي أنْ يعتقدَ أنَّ وجودَ ذلك التأثير كوجود نفس السبب بإيجاد الله - سبحانه -، هذا رأي الفقير في هذه المسألة والله أعلم.

في التمسّك بالأسباب كمالُ التوكّل

فلاحَ من هذا البيان أنّ التمسّك بالأسباب ليس بمنافٍ للتوكّل كما ظنّ النّاقصون بل في التمسك كمال التوكّل فإنّ يعقوب - عليه السلام - أطلق التوكّلَ على مراعاة الأسباب مع تفويض الأمر إلى الحقّ - جل وعلا - حيث قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(١)] انتهى ع[(٢)].

والله - ﷻ - أعلم، وعلمه أتمّ، وأحكم، وهذا الذي سلفناه هو المأخوذ، والمنقول من كلام الأكابر أهل المعرفة، والمشاهَدة.

وأما الذي هو زبدة ما أبداه أرباب الكلام في محلّ النزاع بين أهل السنة، وأهل البدعة أنّ الله تعالى خَلَقَ في العبد جميعَ ما يتوقّف عليه أفعالُ الجوارح من الحركات مثلًا، وأفعالُ النفس من الميل إلى الشيء الذي تكف عنه النفس، ومن الدّاعية التي تدعو إليه، ومن الاختيار له أي: والتمكن من كلّ من الفعل، والترك، لكنْ لا تأثير لقدرة العبد في هذه الأمور من الميل، والدّاعية، والاختيار، وإنّما محلّ قدرته عزمه عَقِيب خَلْق الله تعالى هذه الأمور في باطنه عزمًا مُصَمِّمًا للفعل، وتوجهه إليه توجّهًا صادقًا طالبًا إيّاه غيرَ ملجئ إليه، ولا مقهورًا عليه.

---

(١) يوسف: ٦٧.

(٢) «المكتوبات الربانية» (٢/ ٥٨-٥٩).

فإذا وُجِد من العبد ذلك العزمُ خلقَ الله تعالى له الفعلَ عَقِيبَه فيكون منسوبًا إليه تعالى من حيث الأصلُ، وإلى العبد من حيث الكسبُ والتَّبَعُ، وإنّما يخلق اللهُ تعالى هذه الأمور في العبد؛ لحكمة صحة تعلّق التكليف به، واتجاه الأمر، والنهي إليه، وليظهرَ من المكلّف ما سبق علمُه تعالى من مخالفة أو طاعة للأمر، والنهي، كما أنّ إبليسَ -عليه اللعنة- كان متعجبًّا متكبّرًا في نفسه، فأراد الله تعالى أن يُظْهِر عُجْبَه، وتَكَبّرَه فأمر بالسجود لآدم - عليه السلام - فامتنعَ منه، فظهر بذلك تواضع الملائكة، وتكبّر إبليس.

ليس لعلم الله تعالى خاصية التأثير

ومن الجائز أن يأمرَ الله تعالى بشيء، ولا يريده كما أمر الله تعالى إبليسَ بالسجود، ولم يُرِد منه ذلك، ونهى آدم - عليه السلام - عن أكل الشجرة، ولم يرد منه الامتناعَ بل أراد منه أكْلها، ومع ذلك لا يكون العبد مجبورًا على ما سبق علمُه تعالى به؛ لأنّه ليس للعلم خاصية التأثير، كما أنّك لو علمتَ من الحساب كسوف الشمس في يومٍ كذا في وقتٍ كذا، فجاء ذلك اليوم فوقع فيه الكسوف، ومن البداهيّ أنه ليس للقول بأنّ لذلك العلم تأثيرا في وجود الكسوف مَحالٌ.

إرادة الله تعالى لا أَثَرَ لَها في الإيجاد

وكذا أنّ الإرادةَ لا أثر لها في الإيجاد؛ لأنّ الإرادة صفةٌ شأنُها تخصيص وجود المقدور دون غيره من المقدورات لوقت وجوده من الأوقات السابقة واللّاحقة، ليس شأنها غيرَ ذلك التخصيص.

التأثير في الإيجاد خاصية صفة القدرة

ولا يدخل في هذا المفهوم تأثيرٌ في الإيجاد بل تأثيرها في مجرّد التخصيص لما عَلِم وقوعَه، وإنّما التأثير في الإيجاد خاصية صفة القدرة دون العلم، والإرادةِ، وغيرِها من الصفات، إلّا أنّها إنّما تؤثّر في الوقت الذي تعلّقَتْ الإرادةُ بأنّ المقدور إذا وجد عن مؤثره، وهو صفة القدرة كان وجوده في ذلك الوقت دون ما قبله، وما بعده، والعلم الإلهيّ متعلّق بأنّه يوجد المقدورَ متعلقًا للإرادة على وجه تخصيصه دون غيره بالوجود في ذلك الوقت، ولا قبله، ولا ما بعده، ومتعلقًا للقدرة على وجه التأثير في وجوده، وقتَ تعلّق الإرادة، ثم يوجد ما يوجد باختيار المكلّف على طبق ذلك العلم والإرادة متأثرًا في وجوده عن قدرة الله تعالى، فإذا أعلمَ اللهُ تعالى العبدَ العاقلَ أفعالَ الخير، والشرِّ، ثم كَلَّفَه بإتيان الخير، ووعده عليه أي: على الإتيان به الثواب، وبترك الشرّ، وأوعده عليه أي: على الشرّ إذا أتى به العِقابَ فلا يكون العبد معذورًا في الفعل، والتركِ أي: عند خلق الاختيار له، والتمكّن له بلا قهر، ولا إجبار، ومنه صحّ تعلق التّكليف به، وصحّ ثوابه، ومدحُه بفعل ما هو حسن شرعا، وعقابُه، وذمُّه بفعل ما لا ينبغي شرعًا، وانتفى بطلانُ التكليف، والجبرِ المحض بل يكفي لتصحيح التّكليف ذلك العزم المُصمَّم من العبد للفعل أو الترك بَيْدَ أنّه قلما يكون هذا العزم بلا توفيقٍ من الله تعالى بل لا يقع إلّا بتوفيقٍ منه تعالى تَفَضُّلًا لا وُجوبًا.

فإنّ الشيطان مع الشهوة الغالبة، وهوى النفس بثلاثتها تَشْبَهُ القواسر أي: الأمور الحاملة على ترك العزم قهرا؛ لقوة استيلائها على الإنسان فلا يغلب بحيث يُصمِّم العزم على خلاف ما تدعو إليه إلّا بمعونة التوفيق من

الله - ﷻ - للعبد، والحال أنه ليس للعبد على الله تعالى أن يوفّقه؛ إذ لا يجب عليه شيء، فالمحصول أنّ العبدَ إذا أعلمه الله تعالى طريقَيِ الْخير، والشرّ بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخَلَقَ فيه القدرةَ التي هي الْمُكْنَة أي: التمكّن من كل منهما فقد زال عذرُه، ولا يبقى في التكليف عليه مَجالٌ للإشكال في ظنّ هذا الحقير، ولكن ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[1].

من كمال الوجود أن يكون في العباد مخالفة ومعصية

فائدة جليلة قال الغوث الشعراني - قدس سره - في «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» في ٥١: (واعلم أنّ مِن كمال الوجود أن يكون في عباده تعالى المخالَفة، والمعصية، فالنقص من ذلك نقص في العالم لقوله - ﷻ -: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا وَتَسْتَغْفِرُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ تَعَالَى فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[2]، وإنّما لم نأمر[3] بعضَنا بالمعاصي والفساد إذا كان نقصًا في الوجود أدبًا مع الله تعالى تبارك وتعالى؛ لأنّه تعالى يقول: إِنَّ ٱللَّهَ ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[4] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[5]، ونَسَبَ الأمر بذلك إلى الشيطان في قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[6]، وأمثالِه؛ لأنّه منديل هذا

(١) الحجرات: ١٢.
(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٤٩).
(٣) لعلّ «لم يأمر» أي: النبي ﷺ. والله أعلم.
(٤) الأعراف: ٢٨.
(٥) القصص: ٧٧.
(٦) البقرة: ٢٦٨.

الـدار يمسـح أوسـاخ النِسَـب، وهـي نسبةُ إضافـةٍ، وإسـناد لا نسـبةُ خلـقٍ وإيجـادٍ)[١] انتهـى.

لطيـف عجيـب واقـع بيـن اللعيـن إبليـس، وبيـن الشـيخ سـهل[٢] - ﷺ -:
قـال الشـعراني - قـدس سـره - في «الأنـوار القدسـية» في ٣٣، وفي «اليواقيـت» في ٥٦: (وقـد حُبِّبَ لـي أن أذكـر لـك مناظـرة الإمـام حجـة الله على المحققيـن مـن كمّـل الأوليـاء سـهل بـن عبـد الله التسـتري مـع إبليـس لتعلـمَ قـوّةَ تسـليطه على الخلـق، ولـو لا ذلـك لمـا خَوَّفَنـا الله منـه.

قـال سـهل - ﷺ -: لقيـت إبليس فعرفتُه، وعـرف مني أنّـي عرفتـه، فوقعتْ بيننـا مناظـرة فقـال لـي: وقلـت لـه: وعـلا بيننـا الـكلام، وطـال النـزاع بحيـث إنّـه وقـف، ووقفـت، وحـارَ، وحِـرْتُ، وكان مـن آخـر مـا قـال لـي: يـا سـهل إن الله تعالـى يقـول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٣] نعـم، ولا يخفـى عليـك أنّـي شـيء بـلا شـك؛ لأن لفظـة «كل» تقتضـي العمـوم والإحاطـة إلّا مـا خُـصّ، و«شـيء» أنكـر النكـرات فقـد وَسِعَتْني رحمتـه أنـا، وجميـع العصـاة فبـأيّ دليـل تقولـون إنّ رحمـة الله لا تنالُنـا، قـال سـهل - ﷺ - فـوالله لقـد أخرسـني، وحيّـرني بلطافـة سياقه بظفـره بمثـل هـذه الآيـة، فإنـه فهـم منهـا مـا لـم أفهـم، وعلـم منهـا مـا لـم أعلـم فبقيـت حائـرا متفكّـرا، وأخـذت أتلـو الآيـة في نفسـي فلمّـا جئـت ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[٤] سَـرَرْتُ،

---

(١) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» (ص ٥١).

(٢) أبـو محمـد سـهل بـن عبـد الله التّسـتريّ، (٠٠٠ - ٢٨٣ هـ/ ٠٠٠ - ٨٩٦ م) «شـذرات الذهـب في أخبـار مـن ذهـب» (٣/ ٣٤٢)، و«معجـم المؤلفيـن» (٤/ ٢٨٤).

(٣) الأعراف: ١٥٦.

(٤) الأعراف: ١٥٦.

وتَخيّلْتُ أنّي قد ظفرت بحُجة، وظَهَرْتُ عليه بما تَقصِمه، وقلتُ يا ملعون إنَّ الله تعالى قيّدها بنعوت مخصوصة يُخرجها من ذلك العموم، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾[1] الآية، فتبسم إبليس، وقال: يا سهل ما كنتُ أظنُّ أنْ يبلُغ بك الجهل هذا المبلغ، ولا ظننتُ أنّك هناك ليتك سَكَتَّ، ليتك سكت، ليتك سكت، ألستَ تعلم يا سهل أن التقييدَ صفتُك لا صفتُه قال سهل - ﷺ -: فوالله لقد أخرسني، ورجعت إلى نفسي، وغصَصْتُ بريقي، وأقام الماء في حَلْقي، ووالله ما وجدت جوابًا، ولا سَدَدْتُ في وجهه بابًا، وعلمت أنه طمع في مطمع عنده، وانصرفت، وانصرف ووالله ما أدري بعد هذا ما يكون، فإنّ الله تعالى ما نصّ بما يرفع هذا الإشكال، فبَقِيَ الأمرُ عندي على المشيئة منه في خلقه لا أحكم عليه في ذلك إلّا ما حكم به على نفسه من حيث وجوب الإيمان به.

قال سهل - ﷺ -: فهممت أن آخُذَ عن إبليس طريق المعرفة، وإن لم ينتفع هو بها لقول بعضهم - ﷺ -: انظر ما قال، ولا تنظر إلى مَنْ قال انتهى كلام سهل - ﷺ.

قال الشيخ محي الدين: وقد كنت قديمًا أقول ما رأيت أقصر حجة من إبليس، ولا أجهل منه فلمّا وقفت له على هذه المسألة التي حكاها عنه سهل - ﷺ - تعجّبت، وعلِمْتُ أنّ إبليس قد علم علمًا لا جهل فيه، فله رتبة الإفادة لسهل في هذه المسألة انتهى.

---

(١) الأعراف: ١٥٦.

فقد بان لك أنّ الله تعالى خلق العالم كلَّه من غير حاجة إليه، ولا مُوجِب أوجب ذلك انتهى ما في «الأنوار القدسية» و«اليواقيت» فتأمّل هذه المناظرة تَفُزْ بما فيها، والله يتولّى هُداك وهو يتولّى الصالحين[1].

لطيفة أخرى من اللعين إبليس قال العارف الشعراني - قس سره - في «الأنوار القدسية» في ٣٤: (إنّي اجتمعتُ مع إبليس في عالم الخَيَال وذاكرته، فقال إبليس: أنا أغارُ على نقص الطاعات؛ لأنّ الرحمةَ سبقت الغضبَ، ولأنّ من كمال الله تعالى وجود الطاعات والمعاصي[2]، وللعاصي في ملكه الإسم المنتقم، ونحوه يطلب الانتقام من أهل حضرته، وليس ذلك إلّا من العصاة كذلك الاسم الرحيم مثلًا يطلب الرحمة من أهل حضرته، وليس ذلك إلّا للمطيعين فلم ينقصِ الوجود، ولا يخلو طَرْفَة عين من طاعة، ومعصية فكل اسم يطلب وقوع أثره من أهل حضرته، وخطاب الحقّ - ﷻ - بالأوامر، والنواهي يعمّ المؤمن، والكافر، والطائع، والعاصي، والأرواح، والروحانيين، فإذا عَلِم الاسم الرّحيم مثلا أنّه قد انتهتْ مدّة الانتقام ممن استحقّه أخذه ليُجريَ عليه حكمَه من الرحمة، واللطف فالخلق كلُّهم مخاطبون بالأمر فمن أجابَ سُمي مطيعًا، ومن أبى سُمي عاصيًا شقيًّا، فإباية العبد عن إجابة الأمر ليس من حيث نفسه، وحقيقته؛ لأنّه مقهورٌ دائمًا تحت الإسم الذي قَهَرَه، وإلا فكيف يمكن العبد الضعيف أنْ يَتخلّف عن إجابة الأمر الإلهيّ فالتنازع بين الأسماء واقع؛ لأنهم[3] الأَكِفَّاءُ بين

(١) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» (ص ٣٣).

(٢) وفي الهامش: لم أجد هذا في الأصل ولعل أنه ساقط منه والله أعلم. (منه).

(٣) وفي الهامش: كذا في الأصل ولعل الصواب لأنها. (منه).

العبد، والإسم الداعي إلى حضرته، ومؤاخذة العبد بالإباية بادعائه لنفسه، وعدم إضافتها إلى الإسم الإلهيّ الذي هو تحت قَهْره.

فانظر هذا اللعين ما أشدّ معرفته بحضرات الأسماء

والعبد لم يزل بين الأسماء، يتركه اسم فيستقبله آخر، هكذا شأنه انتهى كلام إبليس، فانظرْ هذا اللعين ما أشد معرفته بحضرات الأسماء، وما يقابلها، فافهم ذلك)[1] انتهى.

من المحال ترك المكلّف لحظة لنفسه

وعبارة «اليواقيت» للعارف الشعراني - ﷺ - في ٧٩ بعد كلام: (فإنْ قلتَ: فإذن العبد أسير تحت سلطان الأسماء على الدوام؟ فالجواب: نعم، هو أسير تحت سلطانها، فلا ينقض حكم اسم إلّا ويتولّاه حكم اسم آخر فلا تزال الأسماء تجاذبه ليلًا، ونهارًا، ومحالٌ أن يترك المكلّف لحظةً واحدةً لنفسه فاسم الرحمن يطلب مرحومًا على الدوام، واسم المنتقم يطلب مُنْتَقَمًا منه على الدّوام.

لا يخلو عبد من أن يكون في عمل لأحدِ الدارين

وهكذا فلا يخلو عبد من أن يكون في عمل لأحد الدارين بحكم القبضتين[2]، وما خرج عن هذا الحكم إلا المعصوم أو المحفوظ كما مرّ،

(١) «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية» (ص ٣٤-٣٥).

(٢) وفي الهامش: والقبضة بالضم ما قبضت عليه من شيئ يقال أعطاه قبضة من سويق أو تمر كفا منه ربما جاء بالفتح. مخ ع.

والله تعالى أعلم انتهى ما فتح الله به من الكلام على اسمه تعالى الحي، وتوابعه) انتهى[1].

ومن أراد إدراك ما في هذه المسألة من الأسئلة العَوِيصة، والأجوبة العميقة فليراجع إلى كتاب «اليواقيت» و«الجواهر في بيان عقائد الأكابر» للإمام العارف الرباني السيد عبد الوهاب الشعراني - قدّس الله أسرارَه - من المبحث الرابع والعشرين من الجزء الأول إلى آخر الكلام، ففيه بسط في ضمن نحو ست وعشرين صحيفة، فإنّه لم يترك فيه مُجملًا إلّا مفصلًا، ولا سؤالًا إلّا مجابًا، ولا إشكالًا إلّا مَقْطوعًا، ولا مُغْلَقًا إلّا مفتوحًا، وذلك بكشفٍ صحيحٍ وإلهامٍ صريحٍ.

خاتمة: إني أردت أن أذكر هنا إجمالَ ما تقدّم؛ لأنه يحصل به مَزيدُ بيانٍ، وتوضيحُ مقصودٍ بقرب استحضارها، فللعلماء أقوال في أجوبة هذه المسألة، فبعض منهم يقول: إنّ السكوت عن السؤال عنها، وعن البحث فيها، هو الجواب الشافي لها؛ لأنها من سِرّ القَدر الذي لا يُدركه إلا أهلُ الكشف، ولا يترخّصُ في إفشائه إلّا لأهله.

وبعضهم يقول: إنّ العبدَ تحت إرادة الله السابقة في علمه الأزلي فلا يَقدِر على المخالَفة له تعالى فيما أراده منه، فهو مقهور في الواقع مختار في ظاهر الحال، وحينئذ فالثواب بمحض فضله تعالى، والعقاب بمحض عدله تعالى لا يُسأَل ربُّنا عمّا يَفْعَل، ونحن مسؤولون بحكم آية ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[2]، فالأفعال الاختيارية أمارة شرعية على الثواب والعقاب،

---

(١) «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» (ص ١١٥).

(٢) الأنبياء: ٢٣.

يخلقُها الله تعالى في عباده للدلالة على ما أراده لهم في الآخرة فكل عبد ميسَّرٌ لما خُلق له فلا يقدر على عمل غيره البتة.

وبعضهم يقول: إنّ فعل العبد معلوم علمِ الله في الأزل فكما لا افتتاح لعلمه تعالى لا افتتاح لمعلومه تعالى فالحق - تعالى - لم يَظلِمْنا شيئا؛ لأنّ العلم تابع للمعلوم لا حاكم عليه، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

وبعضهم يقول: إنّ الله تعالى مالك لجميع المخلوقات على الإطلاق فمؤاخذة العبد، ولو كان سعيدًا لا تكون ظلما منه تعالى، ولا مَحَلَّ للاعتراض عليه تعالى؛ لأنّ له التصرّفَ فيها على الإطلاق كيف شاء بلا تقييدٍ، بخلاف تصرّف الخلق في أملاكهم؛ لأنّ تصرّفَهم فيها مقصور على القَدْر الذي جوّزه المالك على الإطلاق، حتى قالوا: إن تصرّف الخلق في أملاكهم عينُ الظلم؛ لأنّ أملاكَهم في الحقيقة أملاكُه تعالى.

وبعضهم يقول: إنّ على العبد امتثالَ أمر سيّده بلا نظر إلى أنه مراده، والحال أنّ الإرادة أمر غائب من العبد لا يعرف أنّه المأمور به أو غيرُه، وأنّه يجوز أن يأمره الله تعالى بشيء، ولا يُرِيدُه منه، ألا ترى أن إبليس اللعين أمره الله تعالى بالسجود لآدم - عليه السلام -، ولم يُرد منه، وأنّ آدم - عليه السلام - نهاه عن أكل الشجرة، ولم يرد منه الامتناع بل أراد منه الأكل، فالعبد مُطيع للإرادة السابقة في جميع أفعاله عاصٍ للأمر الظاهر، فمؤاخذة العبد إنّما هي لمخالفة أمره لا لمخالفة ما أراده، فالظلم راجع إلى عقابه على فعل ما أمر

---

(١) النحل: ١١٨.

به - تعالى وسبحانه - لا ما أراده - عليه السلام -، والحسن إلى عقابه على مخالفة أمره تعالى، ومع ذلك لا بد لنا من أن نقوم بما كلّفنا به من الأمر والنهي بحكم هذه الآيات ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(1) ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُو﴾(2) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾... إلخ(3) ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(4) ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾... إلخ(5) ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(6) ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(7)، إلى غير هذه، فمن أصدق قولاً من الله، وهو تعالى لا يقول إلّا الحق، وهو سبحانه يتوّلى هُداك.

وبعضهم يقول: إنّ الله خَلَقَ في العبد الاختيارَ، والتمكّنَ من كلّ من الفعل والترك مِقدار ما يحتاج إليه، للخروج من عُهدة الأوامر، والنواهي الشرعيتيْن، ولا يلزم عليه إعطاء قدرةٍ كاملة، واختيارٍ تامٍّ.

ثم أعلمه طريقي الخير، والشرّ ببعثة الرُّسُل، وإنزال الكتب؛ لأنّه تعالى منزَّه عن المجيء إليهم، والنزولِ عليهم، والحالُ أنّه لم يكن

---

(1) الأعراف: 199.
(2) آل عمران: 104.
(3) آل عمران: 110.
(4) آل عمران: 113.
(5) آل عمران: 114.
(6) المائدة: 63.
(7) المائدة: 79.

كلامه تعالى بحرف، ولا صوت حتى يسمَعوا[1] كلامَه تعالى مباشرةً، ومشافهةً، وقد ألمّ [2] بعض الشعراء بهذا المعنى:

ولما تعذر أن نَلتقيَ * وزاد النزاع[3] وجُدَّ[4] القدم
سعيتُ إليك برجل الرسول * وناجاك عنّي لسان القلم.

ويسمى هذا العزم كسبًا عند القوم

ثم كَلَّفَه بإتيان الخير، ووعده عليه، وبترك الشرّ، وأوعده عليه، ومحل قدرة عزمه للفعل أو الترك عزمًا مُصَمَّمًا غير ملجئ إليه، وعنه صحّ تعلّق التكليف به، والقضاء السابق لا يسلُب القدرة، والاختيار عن العبد؛ لأنّ الله تعالى قضى بأنّ العبدَ يفعله أو يتركه باختيارِه بل القضاء محقّق للاختيار لا مُنافٍ له.

ثم إنّ الدعاء من العبد سببٌ رتّبه الله تعالى، وأمره به في غير موضع من كتابه المجيد، وأَطْبَقَ عليه أهلُ السموات، وأهل الأرض من أهل المِلَل، والأديان حتى قالوا: إنّ نفس الدعاء من الأمور السوَابِق، وإنّ الربْط بين الأسباب، والمسبَّبات هو القضاء الأول الذي هو كلَمْح البصر؛ لأنّ الذي قدّر الخيرَ قدّره بسببٍ، والذي قدّر الشرّ قدّر لدفعه سببًا، مثاله: أنّ الله

---

(١) وفي الهامش: وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (منه رحمه الله تعالى).

(٢) وفي الأصل: «طبّقه».

(٣) وفي الهامش «الشوق».

(٤) وفي الهامش: «قطع عني».

تعالى كما قدّر الداء، قدّر زوالَ الداء بالدواء والرُقْيةِ، فكلّ مَنْ أصابه داء فتداوى، وبرئ، فاعلم أنّه قدّر هذا الدواء نافعًا في ذلك الدّاء، وإذا لم يقدر الداء أن ينفعَه الدواء، لم ينتفع مداواة جميع أطبّاء العالم.

وعلى هذا المِنوال جميع الأسباب، يعني أنّ هذه الأسباب مِنْ قَدَر الله تعالى، ومن الأمور السابقة، وكذا إنّ محوَ السعادة، وتبديلَ الشقاوة من الأمور السابقة في علمه الأزليّ فلا تناقضَ بين كلامهم المُوهم لذلك في مواضعَ مِن كتُبُ القوم؛ لأنّ الكلَّ من الأمور السّابقة.

فائدة مهمة في «الجواهر» في ١٠٦ ما حاصله: (إنّ الأذكار، والعبادات لِسَعَة الرزق، ودَفعِ الضرر، وهَلاك الظّالم، ودفعِ الفَقر، وقضاءِ الحوائج إلى غير ذلك، فما كان من ذلك مَطْلوبًا لذاته بذلك الذكر، والعبادةِ فهو شِرك الأغراض، وهو حرام، وما كان منه لِيُعينَ على عبادة الله تعالى، فإنْ كان قصدُه في ذلك الذكر الخاصّ، والعبادةِ الخاصةِ مُجَرَّدَ غَرَضِه من سَعَة الرزق، وغيرِه عن قصد وجه الله تعالى بالذكر ..فذلك أيضًا من شرك الأغراض، وهو حرام.

وإنْ قَصَد بذلك وجهَ الله تعالى، ورجى مع ذلك قضاءَ غرضِه لِيَستعينَ به على عِبادة ربِّه، ويَدْعو عَقب عبادته لله تعالى بقضاء حاجته فهو جائزٌ، لا حَرَجَ فيه، لكن بعد الاعتقاد أنّ الله هو الفاعل بالاختيار لا بالذكر بل عنده لا به، فهذا وجه صحّتِه) انتهى[1].

يعني أنه طلب بالذكر وجه الله تعالى، وأنّ الأذكار، والعبادات لا تأثير

(١) «جواهر المعاني في فيض سيدي ابي العباس التيجاني» (ص ٣١٩).

لهـا، وخواصُهـا مـن الثـواب هنـا وهنـاك، وأنّ الله - عـزّ وجـل - هـو الفاعـل عندهـا بمحـض اختيـاره لا لعلـة، فهـذا وجـه صحّتـه.

خلاصة جميع الكتب وأمرِ الأنبياء وورثتِهم

تذييـلٌ: بمـا فيـه تبجيـل أنّـي رأيـت أن أضـع هنـا مـا وضعَـه الغـوثُ الربّـاني، والمَعـدِن الصَمَدَانِـيُّ أبـو المواهـب عبـد الوهـاب الشـعراني - قـدس سـره - في آخـر كتابـه «الأنـوار القدسـية في بيـان آداب العبوديـة»؛ لكونـه خلاصـةَ مـا هنـا نَقلنَـاه قبـل، بمـا لفظـه: (وقـد أحببـت أن أَختِـم هـذه الرسـالة بـكلامٍ جامـعٍ لأحـوال الخلـق، ولخلاصـة جميـع الكتـب المُنزّلـة، ولخلاصـة مـا سـلّك بـه المُسَـلِّكون إلـى يـوم القيمـة؛ لأنّ خلاصـة جميـع مـا أُمِـرَ الأنبيـاءُ وورثتُهـم أن يقولـوا لأممهـم بعـد أن يبيّنـوا لهـم الحَـرام، والحـلالَ افعلـوا مـا علمتُـم أنّكـم مأمـورون بـه، واجتَنِبُـوا مـا علمتُـم أنّكـم نُـهِيْتُمْ عنـه، هـذا مـا عليْهـم.

الكلام الجامع لكل الكلام

وأمـا الامتثـال فراجـع إلـى الله تعالـى، واعْلـمْ أنّ كلّ العَـوَام المخالطيـن للعُلَمَـاء إلّا قليـلًا يَعرفـون الحـلال، والحـرام لا يَجْهَلُـون مِنْهـمَا إلّا بعـض مسـائلَ دقيقـةٍ لا تَقَـع إلّا نـادرًا، فـإذا تقـرّر ذلـك فأقـول، وبـالله التوفيـق جائنـي هاتـفٌ في المنـام، وقـال لـي: اسـمع هـذا الـكلام الجامـعَ لـكلّ كلام، فقلـت لـه: نعـم، فقـال علـى لسـان الحـق: ليـس للعبـد أن يَشـغَل قلبَـه في كلّ نَفَـسٍ بالاختيـار لفعـل شـيء أو تركِـه في المسـتقبَل، وإنّـما عليـه أن يُعطـيَ مـا أبرزنَـاه علـى يَديْـه حقَّـه، فـإنْ كان طاعـةً حَمِدَنـا عليهـا، واسـتغفرَنا مـن تقصيـرِه فيهـا، وإن كان

معصيةً حَمِدَنا على تَقدِيرها عليه، واستغفرَنا من ارتكابه مخالفةَ أمرنا، وإن كان غفلة، وسهوا أو نحوها فعل ما هو اللائق بها.

وقد قربنا لك طريق الأدب، في كل ما يجري به على يديك انتهى. فافهم ذلك فَهَّمَنا اللهُ، وإيّاك آمين) انتهى.

تنبيه: إنّ أكثر ما في هذه الكُرّاسة كان على طريق القوم، وطريقهم مبنيٌّ على الذوق، والشُّهود لا على النقل، والتقليد، فمن لم يذق وأنكر فهو معذورٌ، إن شاء الله تعالى.

ثم اعلم أيّها الحبيب السديد، والنجيب السعيد، أنّ الكلام ها هنا لا نهاية له، ولعلّ فيما تَلَوْناه كفايةً للموَفَّق له، ولا أرى في الزيادة على ذلك إلا التصديع، والمَلال، وإلّا الإطناب، والكَلال، وماذا أكتب بعده، وماذا أقول غيرَه، ثم إنّك أيّها الخبير مَيِّزْ علمَ هؤلاء الأكابر - قدّس الله أسرارَهم وأفاض علينا من فيوضاتهم- من علم أمثالنا الأصاغر، -سامحنا الله تعالى، وإيّاكم، ورحم الله علينا، وعليهم.

ثم انظر هل حصل لنا من العلم، والعرفان ما حصل لأدناهم، وهل وجدتَ لنا من الفهم، والإدراك ما وُجِدَ لأدنى مَنْ وَالَاهم، هَيْهَات، هَيْهَات، فَكَلَّا ثم كَلَّا، ومع ذلك هنا قالوا ما قالوا، ونالوا ما نالوا، فأَيْن لأمثالنا الضعفاء الإدراكُ على وجه الكَمال، فيما لم يدركوه، ومَنْ ذا الذي يدّعي المعرفة في حَلِّ هذه المسألة على سبيل التحقيق بما لم ينالوه.

فينبغي لنا الاعترافُ بالعجز، والقُصُور، وهو عندنا عين المعرفة، والحضورِ كما قال الصّديق الأشهر - رضي عنه الله الأكبر -: (العجز عن درك الإدراك إدراكٌ)، سبحانك اللهم ما عرفناك حقَّ معرفتك، لا نُحصِي

ثناءً عليك كما أثنيتَ على نفسك، أيّها المحبوب الرشيد، ابن الحليم الحميد، قد انجرّ الكلامُ هنا منّا إلى الطُّول، ووقع فيه زيادةٌ على ما في السؤال، وذلك؛ لزيادة الفائدة، وهو غيرُ ممنوع(١)، عند ذَوِي المَعرفة، وكذا لم يقع فيها الترتيب كما ينبغي له، والترصيصُ كما يقتضي له، فالمأْمولُ مسامَحَتُكم، والمقصودُ عافيتُكم، على أنّ طُول الكلام من الحبيب إلى المحبوب جمالٌ، يزدادُ حُسْنًا كلّما زاد طُولٌ، فلذا أطال موسى - عليه السلام - مع ربّه تعالى الكلامَ، وقال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾(٣).

ورحم الله تعالى امْرَأً نَظَر إلى ما في هذه الكُّراسة، ورأى فيها ما يُخالف أصولَ أهل السنة، فأصلحَه لكنْ بشرط أنْ يكون على الإنصاف، والمعرفةِ، والإخلاص، والدقّة، الحمد لله حمدًا يوافي نعمَه، ويكافئُ مزيده.

والصلاة، والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله، وأصحابه أجمعين عددَ ما ذَكَرَه الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، هذا تمام ما أردت إبرازَه، وآخرُ ما كنتُ أرجُوا إيرادَه، إن كان صادقًا فمِنْ توفيق الله تعالى،

---

(١) وفي الهامش: قال في المظهر ما نصه لأن المجيب يجوز له أن يزيد على السؤال شيئا لزيادة الفائدة انتهى. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) طه: ١٨.

(٣) الكهف: ١٠٩.

فله الحمد، والمِنّة، وإن كان كاذبًا فَمِنْ نَفْسي الأمَّارة بالسوء فعَلَيَّ الوِزرُ، والعُهدةُ، واللهُ تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجِع، والمآبُ.

وقد أخرجتُه من السّواد إلى البياض في أواخر شهر صفر من سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وخمسين (١٣٥١هـ) هذا، والسلام، وبالدعاء أوصِيكم، وأنا الحقير الضعيف حبيب الله اللهيف ابن العالم العارف الفقيه النّاسك الحاج عيسى القحيّ عليهِمَا مَراحِمُ الإله الأوْحَدِيّ، الحمد لله على التوفيق، وأستغفرُ الله مِنْ كلّ تقصيرٍ.

ثم وقد كتب الشيخ الكبير، والمرشد الشهير قطب الزمان، وغوث الأوان وَلِي الله تعالى بلا نزاع، وصفيّه سبحانه بلا دِفاع مير[١] سيف الله الغازي غُمُوقي النِّزْبَكَرِيّ[٢] - قدس سره - إلى خليفته المرشد الحَقِيّ العالم العارف حَسَن حِلْمِيّ القحيّ وقتَ وفاة والِدِي المذكور، في أثناء كتابه المكتوب إليه بمرثيّة[٣] ذلك الوالد المذكور بما نصّه: (ثم إنّه لمَّا وَصَلَ لَدَيَّ كتابُكم الكريم انجابَ عنّي سُحُبُ الغُمُوم، وإن كان في آخره نارُ السَّمُوم من خبر نفي انتقال الشيخ التقيّ، والعابد النَقِيّ الصائب المُوفَّق، والآئِب المحقّق الحاج عيسى، ولَعَمْرِي كان مغروزا كلّ وقت في فؤادي،

---

(١) يعني: سيد.

(٢) ولد السيد الشيخ - قدس سره - فى قرية نِزْوْكْرَا في منطقة لاك فى بئة علمية سنة (١٨٥٣ - ١٩١٩م)، وكان أبوه حسين وإخوته الخمسة قد تخرّجوا من مدرسة سلطة وكانوا علماء مهرة. وذهب إلى إمام شمويل رحمه الله مع عائلته وكان إلى آخر عمره معه، وأمه بَخْتِنْ كانت امرأة صالحة تعرف مع لغتها القومية لغة الأوارية وتفهم اللغة العربية وكانت قابلة من قوابل قرية نِزْوْكْرَا.

(٣) [ر ث ا]: رَثَيْتُ الْمَيِّتَ مِنْ بَابِ رَمَى وَمَرْثِيَةً أَيْضًا إِذَا بَكَيْتُهُ وَعَدَدْتُ مَحَاسِنَهُ. «مختار الصحاح» (ص ١١٨).

ومَسَرَّةً لي بذكره عند نَكَادِي، وإن كنتُ محرومًا عن رؤيتِه، ومعذورًا عن مُلاقاته، وكان أوّلَ مرجوّ في هذه الديار، فجزاه الله عنّا خيرا وزاده مَثُوبَةً، وأجرًا، وجعَلَه الله تعالى في جِواره مع أوليائه، وأَحِبّائه، فغفر الله له ولكم) إلخ انتهى مِن خَطّ خَطّ خطّه.

وأنا حبيب الله المذكور نقلت هذا هنا شكرًا على تذكر ذلك الشيخ الأكبر لذلك الوالد المغفور، وأيضًا كان ذلك الوالد في شوقٍ شديدٍ، وحرصٍ أكيدٍ في ملاقاته لذلك الشيخ الأكبر - قدس سره - ولكنْ حِيلَ بينهما الموجُ، وكان أمر الله قَدَرًا مَقْدُورًا. والسلام.



فهرس مصادر ومراجع المؤلف

الكتاب	الصفحة
تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول	١٤٣
المكتوبات الربانية	٣٣
رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم	٩٩
الجواهر والدرر الكبرى	١٢٦
الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار	٩٠
المنن الكبرى	٨٢
لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق	١٢١
لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية	١١٢
مشكاة المصابيح	٧٥
جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني	٩٦
اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر	١٧٨
إحياء علوم الدين	٣٣
تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد	١٤٠
إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين	٩٥

المصادر والمراجع

١. المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرون - دار الدعوة.

٢. تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، لإبراهيم ابن محمد الشافعي الباجوري (ت ١٢٧٦) - بيروت، دار الكتب العلمية.

٣. المستدرك على الصحيحين، للحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطهماني النيسابوري (ت ٤٠٥)- بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ م.

٤. الإبانة الكبرى، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد العُكْبَري (ت ٣٨٧) - الرياض، دار الراية.

٥. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لأبي حاتم محمد بن حبان (ت ٣٥٤) - بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨ م.

٦. الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد الأندلسي القرطبي (ت ٤٥٦) - القاهرة، مكتبة الخانجي.

٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد الشيباني (ت ٢٤١) - القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٥ م.

٨. تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، لمحمد أمين ابن فتح الله زاده (ت ١٣٣٢) - بيروت، دار الكتب العلمية.

٩. سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣) - دار إحياء الكتب العربية.

١٠. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت ٧١١) - بيروت، دار صادر، ٢٠١٤ م.

١١. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأنباري (ت ٥٧٧) - الأردن، الزرقاء، ١٩٨٥ م.

١٢. صحيح مسلم «الجامع الصحيح»، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١) - بيروت، دار إحياء التراث العربي.

١٣. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين أحمد بن محمد البرمكي الإربلي (ت ٦٨١) - بيروت، دار صادر، ١٩٩٤ م.

١٤. الملل والنحل، لأبي الفتح، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨) - دمشق، مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠١٥ م.

١٥. روح البيان، لأبي الفداء، إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي الخلوتي (ت ١١٢٧) - بيروت،: دار الفكر.

١٦. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح، عبد الحي بن أحمد العَكري الحنبلي (ت ١٠٨٩) - بيروت، دار ابن كثير. ١٩٨٦ م.

١٧. المعجم الأوسط، لأبي القاسم، سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠) - القاهرة، دار الحرمين.

١٨. الرسالة القشيرية، لأبي القاسم، عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥) - دار الشعب.

١٩. السنة، لأبي بكر، أحمد بن عمرو الشيباني (ت ٢٨٧) - المكتب الإسلامي، ١٩٨٠ م.

٢٠. إحياء علوم الدين، لأبي حامد، محمد بن محمد الغزّالي الطوسي (ت ٥٠٥) - بيروت، دار المعرفة.

٢١. مجموعة الرسائل لأبي حامد، محمد بن محمد الغزّالي الطوسي (ت ٥٠٥) - بيروت، المكتبة العصرية.

٢٢. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (ت ٢٧٥) - المكتبة العصرية.

٢٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦) - بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٢٤. تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦) - بيروت، دار الكتب العلمية.

٢٥. طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن، محمد بن الحسين النيسابوري السلمي (ت ٤١٢) - بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م.

٢٦. صحيح البخاري، لأبي عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦) - دار طوق النجاة.

٢٧. سنن الترمذي ، لأبي عيسى، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩) - بيروت، دار الغرب الإسلامي. ١٩٩٨ م.

٢٨. شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر، لأبي فيصل، البدراني.

٢٩. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، لأبي منصور، عبد القاهر بن طاهر التميمي الأسفراييني - بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧ م.

٣٠. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣).

٣١. تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول، لأحمد زيني دحلان القرشيّ المكّيّ (ت ١٣٠٣) - بيروت، كتاب ناشرون.

٣١. المكتوبات الربانية، لأحمد بن عبد الأحد الفاروقي السِّرْهِنْدِي (ت ١٠٣٣) - بيروت، دار الكتب العلمية.

٣٢. السنن الكبرى، لأحمد، أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣) - بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١ م.

٣٤. الأدب المفرد، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦) - الرياض، ١٩٩٨ م.

٣٥. الإنسان مسير أم مخير، لمحمد سعيد رمضان البوطي (ت ١٤٣٤)، دار الفكر.

٣٦. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، لعبد الرزاق بن حسن الميداني الدمشقي (ت ١٣٣٥) - بيروت، دار صادر، ١٩٩٣ م.

٣٧. طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين، عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت ٧٧١).

٣٨. الإبهاج في شرح المنهاج شرح على منهاج الوصول إلى علم الأصول، لتقي الدين، شيخ الإسلام علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦)، دار البحوث للدراسات، ٢٠٠٤ م.

٣٩. تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت ٨٦٤) وعبدِ الرحمن بن أبو بكر السيوطي (ت ٩١١) - القاهرة، دار الحديث.

٤٠. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية،

لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي (ت ١٢٠٤) - بيروت، دار الكتب العلمية.

٤١. البروج المشيدة بالنصوص المؤيدة، لحسن بن محمد حلمي القَحِيُّ الداغستاني (١٣٥٦) - محج قلعة، دار الرسالة.

٤٢. لباب التأويل في معاني التنزيل، لأبي الحسن علاء الدين علي بن محمد (ت ٧٤١) - بيروت، دار الكتب العلمية.

٤٣. تاريخ بغداد وذيوله، لأبي بكر أحمد بن علي البغدادي (ت ٤٦٣) - بيروت، دار الكتب العلمية.

٤٤. مشكاة المصابيح، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله التبريزي (ت ٧٤١) - بيروت، المكتب الإسلامي. ١٩٨٥ م.

٤٥. الأعلام، لابن محمود الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦) - دار العلم للملايين، ٢٠٠٢ م.

٤٦. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو جار الله (ت ٥٣٨) - بيروت، دار الكتاب العربي.

٤٧. مختار الصحاح، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي الرازي (ت ٦٦٠) بيروت، المكتبة العصرية. ١٩٩٩ م.

٤٨. شرح العقيدة النسفية، لمسعود بن عمر التفتزاني (ت ٧٩٢) - الجزائر، دار الهدى.

٤٩. الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية، لأبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الأنصاري (ت ٩٧٣) -مصر.

٥٠. الجواهر والدرر الكبرى، لأبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الأنصاري (ت ٩٧٣) بيروت، كتاب – ناشرون.

٥١. الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار، لأبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الأنصاري (ت ٩٧٣) بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٢. المنن الكبرى، لأبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الأنصاري (ت ٩٧٣) – دار التقوى.

٥٣. اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، لأبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الأنصاري (ت ٩٧٣) – بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٤. لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق، لأبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الأنصاري (ت ٩٧٣) – دار الكتب العلمية.

٥٥. لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية، لأبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الأنصاري (ت ٩٧٣).

٥٦. طبقات الخَواجكان النقشبندية وسادات المشايخ الخالدية المحمودية، لشعيب أفندي ابن إدريس الباكني – محج قلعة، دار الرسالة.

٥٧. سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي – القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠٦ م.

٥٨. طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدنه وي الرومي – السعودية، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٧ م.

٥٩. حاشية محي الدين شيخ زاده، لمحي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجَوي الحنفي (ت ٩٥١) - دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

٦٠. الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شجاع بن شهردار الديلمي الهمذاني – بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦ م.

٦١. شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، لأبي العباس أحمد بن محمد المالكي الخلوتي (ت ١٢٤١) – بيروت، دار ابن كثير.

٦٢. المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الشامي (ت ٣٦٠) – دار إحياء التراث العربي. ١٩٨٣ م.

٦٣. شرح حزب البر المعروف بالحزب الكبير، لأبي زيد بن محمد الفاسي (ت ١٠٣٦) – دار الكتب العلمية.

٦٤. رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، لأبي حفص بن سعيد الفوتي (ت ١٢٨١) – بيروت، كتاب – ناشرون.

٦٥. القاموس المحيط، لأبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧) – بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥ م.

٦٦. معجم المؤلفين، لعمر بن رضا كحَّالة الدمشقي (ت ١٤٠٨) – بيروت، مكتبة المثنى.

٦٧. الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة، لمحمد فتحا بن عبد الواحد السوسي النظيفي (ت ١٣٣٦) – بيروت، دار الكتب العلمية.

٦٨. تنبيه السالكين إلى غرور المتشيخين، لحسن بن محمد حلمي القحي الداغستاني - محج قلعة، دار الرسالة.

٦٩. نور الأنوار وكنز الأبرار في ذكر الصلاة على النبي المختار، لمحمد بن عبد الله الحلبي القادري - بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧ م.

٧٠. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، لمحمد بن محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥) - بيروت، دار الكتب العلمية.

٧١. المفاتيح في شرح المصابيح، لمظهر الدين الحسين بن محمود الزَّيْدَانيُّ الشِّيرازيُّ (ت ٧٢٧) - وزارة الأوقاف الكويتية، دار النوادر، ٢٠١٢ م.

٧٢. الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، لنجم الدين محمد بن محمد الغزي - بيرو، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧ م.

المصادر والمراجع باللغة الروسية

Сулейманов С.И. Книга памяти жертв политических репрессий 20-50-х гг XX в. в Дагестане (документы, списки) (كتاب الأموات سنة ألف وتسعمائة وعشرون إلى خمسين (الوثائق))) . – Махачкала: МавраевЪ, 2015. – 608 с.

Арипов Г. Г. Баракат (البركة). – Махачкала: Издательство «Юпитер», 2006. – 240 с.

المصادر والمراجع باللغة الأورية

Бутаев И.Ч. НекӀисияб ТӀидиб (طدب القديم) (Древний Тидиб). – Махачкала: Издательство «Лотос», 2009. – 4 с.

المصادر والمراجع الالكترونية

1. http://islamdag.ru/lichnosti/26574: يـوم الاسـترجاع 18.02.2020,

2. https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D9%84%D8%B4%D9%81%D9%8A%D8%A9 3.02.2020: يـوم الاسـترجاع،

3. https://ar.wikipedia 08.05.2020: يوم الاسترجاع

4. https://ar-ar.facebook.com/abdlrazaq: يــوم الاســترجاع
08.05.2020

5. https://tatcenter.ru/person08.05.2020 : يوم الاسترجاع



فهرس